كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر

# عِلْمُ الأصوات
# عِند سِيبَوَيه وعندنا

أرتور شادَه
Arthur Schaade
(١٨٣٣- ١٩٥٢)

إخراج وتعليق
أ. د. صبيح التميمي

بغداد
٢٠٢٤

منشورات

مركز البحوث والدراسات والنشر

كلية الكوت الجامعة

٤١٢ /٢

ش ٢٤٢ شادة ، ارتور.

علم الاصوات عند سيبويه وعندنا / ارتور شادة ،

اخراج وتعليق صبيح التميمي. - ط١ . - بغداد :

مطبعة كلية الكوت الجامعة، ٢٠٢٤

١-اللغة العربية - الاصوات ٢. اللغة العربية- النحو

أ. التميمي، صبيح (معلق) ب. العنوان

رقم الايداع

٢١٣٧ / ٢٠٢٤

المكتبة الوطنية/الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٢١٣٧ لسنة ٢٠٢٤م

الرقم الدولي: ISBN: 978-9922-685-83-0


**ملاحظة**

مركز البحوث والدراسات والنشر في كلية الكوت الجامعة
غير مسؤول عن الافكار والرؤى التي يتضمنها الكتاب
والمسؤول عن ذلك الكاتب او الباحث فقط.


Al-Kut University College Printing Press

مطبعة كلية الكوت الجامعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾

سُورَةُ النمل: الآية ٥٩

# الإهداء

إلى النجوم الزاهرة، أفلاذ الكبد

د. سميّة

د. محمد

م. عمار

م. أنفال

# المحتوى


| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |
| المقدّمة . | ١١ |
| ما قيل في الدراسات الصوتية العربيّة وروّادها | ١٥ |
| مصطلح علم الأصوات | ١٦ |
| سِيبَوَيه | ١٧ |
| اسمه ، ودلالته ، ولقبه | ١٩ |
| شيوخه ، وتلامذته | ٢٠ |
| كتابه | ٢٢ |
| مادته الصوتية ونوعها | ٢٣ |
| أهدافه | ٢٥ |
| أبرز المستشرقين الذين تناولوا الدراسات الصوتية العربيّة | ٢٧ |
| أرتور أ. شاده | ٢٩ |
| نشأته ودراسته | ٢٩ |
| من مؤلفاته ومقالاته | ٣١ |
| محاضرته حول دراسة سِيبَوَيه الصوتية وفقراتها | ٣٤ |
| نصّ المحاضرة | ٣٩ |
| الأصوات أساس الدراسات اللغوية | ٤١ |
| كيفية إحداث الأصوات اللغوية | ٤٢ |
| موضوع عِلْم الأصوات اللغوية | ٤٤ |

| | |
|---|---|
| جهود الشعوب القديمة في الدراسات الصوتية | ٤٤ |
| من أسباب نشأة الدراسات الصوتية العربيّة | ٤٦ |
| أول الدراسات الصوتية المفصّلة | ٤٧ |
| جهاز النطق في دراسة سِيبَوَيه | ٤٨ |
| وصف سِيبَوَيه للأصوات | ٥١ |
| مخارج الأصوات | ٥٥ |
| قوّة الصوت | ٥٨ |
| العارض وإزالته | ٥٨ |
| تيار النفس | ٥٩ |
| طريقة سِيبَوَيه في تقسيم الحروف | ٦٠ |
| الشديدة والرّخوة | ٦٠ |
| المتوسطة بين الرخوة والشديدة | ٦٣ |
| المجهورة والمهموسة | ٦٥ |
| المطبقة والمنفتحة | ٧٧ |
| الغُنّة | ٨٠ |
| مواضع إنتاج الأصوات | ٨١ |
| الحركات والحروف | ٨٤ |
| ملاحظات حول التشكيل الصوتي | ٨٨ |
| الإدغام وأهدافه | ٩١ |
| المضارعة | ٩٣ |
| الوقف على الهمز | ٩٦ |

| | |
|---|---|
| الكسكسة | ٩٧ |
| الإمالة | ٩٩ |
| من موانع الإمالة | ١٠٢ |
| الفتح | ١٠٧ |
| الإدغام | ١٠٨ |
| فَضْل سِيبَوَيه | ١١٣ |
| المخالفة | ١١٣ |
| الوَقْف | ١١٥ |
| سِيبَوَيه وعلم الأصوات | ١١٨ |

**المقدمة**

أصل هذا الكتيّب محاضرة ألقاها المستشرق الألماني أرتور شاده في الجمعية الجغرافية الملكية في القاهرة عام ١٩٣١ عندما كان موظفاً في الجمعية، ومِنْ ثمَّ كان محاضراً في جامعة فؤاد (جامعة القاهرة حالياً) عن اللغات السامية (١٩٣٠– ١٩٣٤)، ففي هذه الفترة ألقى محاضرته عن دراسة سِيبَوَيه الصوتية مع بيان رأي الغربيين (زمن شاده) فيها، وهي تلخيص رسالته لنيل شهادة الدكتوراه.

ومن أجل اتمام الفائدة لِفَهمْ المحاضرة مهّدنا له بِـــ:

١– التعريف بمصطلح عِلْم الأصوات.

٢– ترجمة مختصرة لحياة سِيبَوَيه، وبيان أنواع دراسته الصوتية، ومنهجها، وأهدافها.

٣– ترجمة مختصرة لحياة المحاضر (أرتور شاده)، وعنايته بالدراسات العربية، وبدراسة سِيبَوَيه الصوتية.

٤– إعطاء فكرة عامة عن مادة المحاضرة، وفقراتها بنوعيها المؤيّدة لدراسة سِيبَوَيه، والناقدة له.

٥– رَصْد آراء (شاده) الناقدة لآراء سِيبَوَيه الصوتية مع التعقيب عليها في هوامش نصّ المحاضرة؛ لتجنّب التكرار.

٦– ذِكْر نصّ المحاضرة كاملة كما جاءت في مجلة جامعة فؤاد المصرية.

٧– تصدير هذا التمهيد بِذِكْر أقوال بعض المستشرقين في دراسة سِيبَوَيه الصوتية.

ولأهمية مادّة هذه المحاضرة، وما عُقِّب عليها أصبحت مصدراً لأغلب الدراسات الصوتيّة المعاصرة لِفِكْر سِيبَوَيه، ولهذا رأيت نشرها [1]، في أكثر من مكان لأمور أبرزها:

أ- قِدم النشرة الأصلية عام ١٩٣١ ضمن مجلة علمية، حتى أصبحت كالمخطوطة، وبدأ الباحثون بالاعتماد على النقل غير المباشر مِمّن ذكَرَ بعض فقراتها.

ب- حاجة أصل المادة العلمية للمحاضرة إلى توضيح ما هو مجمل، وبيان ما هو غامض، وتصحيح ما هو غير دقيق في تفسير أقوال سِيبَوَيه، وهذا ما فعلته في هوامش هذا الكتيّب.

---

[1] إنَّ رغبة نَشْر هذه المحاضرة راودتني منذ ١٩٨٢ أيام كتابتي لبحث الدكتوراه في القاهرة، وبدأت بالعمل لنشرها أنا وصديقي الدكتور صلاح حسنين المصري عام ١٩٨٣ وبعد إتمام العمل دفعنا به إلى دار البيان بجدة، ولظروف خاصة بهم لم تنشر، وفقدت من الدار، ولم نملك نحن نسخة من العمل، وبعد خمس أعوام حصل د. صلاح على النسخة الأصلية، ثم فُقِدت منه، ومضت السنون، وأنا أتحيّن فرصة لإعادة العمل ثانية، وحانت الفرصة وأنا أتحيّن فرصة لإعادة العمل ، وحانت الفرصة وأنا في اليمن/ صنعاء، فأعدت العمل لوحدي، ونشرها (مركز عبادي في صنعاء) عام ٢٠٠٢، وفي هذا العام ٢٠٢٤م أعدت النظر، ونقحته وزدت عليه، ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن أصل المحاضرة نسخة مهداة من الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب (رحمه الله) تعالى وغفر له.

أرجو أن أكون قد وفّقت لإخراج هذه المحاضرة بالشكل اللائق والواضح بها خدمة لأخواني الباحثين في الميدان اللغوي الصوتي.

واستميح العذر عن كلِّ سهْو، أو نسيان، أو عدم التدقيق في التعليق.

﴿ وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[يونس: ١٠]

د. صبيح التميمي

## ممّا قيل في الدراسة الصوتية العربيّة وروّادها

١-"لم يسبق الغربيين في هذا العلم إلاّ قومان من أقوام الشرق، وهما أهل الهند... والعرب".

(المستشرق الألماني برجشتراسر)

***

٢-"نظرية مخارج الحروف عند النحاة العرب نظرية أحكموا ضبطها بعناية".

(المستشرق الفرنسي جان كانتينو)

***

٣-"إنَّ علم الأصوات قد نما وشبّ في خدمة لغتين مقدّستين هما السنسكريتية والعربية".

(اللغوي الانجليزي فيرث)

***

٤-"... بأنّه - يعني سِيبَوَيه - اكتشف قانوناً لم يوّفق علم الأصوات العصري إلى معرفته إلاّ من خمسين سنة على الأكثر"[١].

(المستشرق الألماني أرتور، شاده)

---

[١] أي لم يُكتشف إلاّ في حدود سنة ١٨٨٠م تقريباً، ولـــ"شاده" أقوال صريحة في أسبقية سِيبَوَيه.

## مصطلح علم الأصوات

المراد بِعِلْم الأصوات هو "الدراسة العلمية اللغوية لأصوات الكلام البشري المنطوق".

ولدراسة هذا العلم جوانب ثلاثة:

١- الجانب النطقي: واختصّ به ما عُرِف بِـ(عِلْم الأصوات النطقي)، "ويُعنى بِوَصْف جهاز النطق وحركاته، وطبيعة العمليات الصوتية، وما يترتّب عليها من تحديد الأصوات، وتصنيفها على وفق المخارج والصفات، وما يطرأ عليها من تغيّر حالة التآلف والاقتران، وحالة التباعد.

٢- الجانب الفيزيائي: واختصّ به ما عُرِف بـ(عِلْم الأصوات الفيزيائي)، ويُعنى بِوَصْف كيفية انتقال الصوت في الهواء، وبيان شكل هذا الانتقال، وموجاته، وصفاته، وذبذباته، لِيَصل إلى أذُن السامع.

٣- الجانب السمعي: واختصّ به ما عُرِف بـ(عِلْم الأصوات السَّمْعي)، ويُعنى بِوَصف كيفية استقبال الأذُن للصوت، وبيان شكل العمليات العقلية والنفسية في مراكز الأعصاب من أجل ادراك الصوت، وفَهم معانيه، وقد يُسمّى بـ(عِلْم الأصوات النفسي)، أو بـ(عِلْم الأصوات الإدراكي) منظور فيه إلى الأمر الثاني المتمثّل في كيفية تحويل الموجات الصوتية إلى أشياء مدركة.

# سِيبَوَيه

- ولادته.
- شيوخه.
- تلامذته.
- كتابه.
- دراسته الصوتية ونوعها.
- أهدافه

# سِيبَوَيه [١]

## اسْمه وولادته:

هو أَبو بشْر (عمرو بن عثمان) مولى لبني الحارث بن كعب، لُقِّب منذ طفولته بالكلمة الفارسية (سِيبَوَيه) واشتهر به حتى أصبح عَلَماً له، وفي معناه أقوال كثيرة، ولعلّ أرجحها أنها تعني (التّفاحي)[٢]، لِكَونه – كما قيل – إنَّه حَسَن الوجْه جميل، ووجنتاه كأنهما تفاحتان.

وُلِد سِيبَوَيه بإحدى قُرى شيراز من بلاد فارس تسمّى (البيضاء)، نشأ فيها، ثمّ تاقت نفسه، وهَفَتْ للهجرة إلى مدينة البصرة – المركز العلمي آنذاك – للتزوّد من عِلْم الحديث، فهاجر، ولَمّا وصَل، لَزِم حلقة "حماد بن سلمة البصري"[٣] (ت ١٦٩هـ)، وظلّ يستملي الحديث عليه، وحدث أكثر من مرّة – وهو يقرأ – أنْ لَحّنه حمّاد، منبّهاً إياه على اللحن، وذاكراً له الصحيح، فكان هذا الموقف والتنبيه عليه دافعاً لسيبويه لتعلّم النحو، وقال لشيخه حمّاد: سأطلب عِلْماً لا تلحنّي فيه، فَلَزِم مجالس كبار النحاة في

---

[١] أخبار النحويين البصريين، للسيرافي: ٣٧، وطبقات النحويين للزبيدي، ٦٦، ومراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي، ٧٣.

[٢] سيب بالفارسية: تفاح، و(وي) أداة نسبة قديمة (ينظر: شواهد الشعر في كتاب سِيبَوَيه، د. خالد جمعة)، ط٢ (القاهرة، ١٩٨٩)، ص٢٢.

[٣] حماد: أحد أعلام رجال الحديث واللغة، ينظر: التاريخ الكبير للبخاري، ج٢، ق١، وطبقات النحويين واللغويين، للزبيدي، ٥١.

عهده، وأخذ عنهم، ولكنّه لزِم مجلس الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، واختصّ به، وكان الخليل يُحبّه، ويحترمه، لذكائه، وفطنته ويقول له: مرحباً بالزائر الذي لا يُملّ.

***

**من أبرز شيوخه:**

- أبو الخطّاب الأخفش (.....)
- عيسى بن عمر الثقفي (١٤٩هـ).
- حماد بن سلمة (١٦٧هـ).
- الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ).
- يونس بن حبيب (١٨٢هـ).
- يعقوب الحضرمي (٢٠٥هـ).
- أبو زيد الانصاري (٢١٥هـ)[١].

**أما ابرز تلامذته، فَهُم:**

- محمد بن المستنير (قطرب) (٢٠٦هـ).
- الأخفش سعيد بن مسعدة (٢١٥هـ).
- أبو اسحاق الزيادي (٢٤٩هـ)[٢].

وبعد تمكّن سِيبَوَيه ممّا أراد من علوم اللغة، وشهرته، وتصدّره للتدريس بعد وفاة شيخه الخليل الفراهيدي، وعزمه على

---

[١] تراجمهم في أخبار النحويين البصريين، للسيرافي، ٤٠، ٤١، ١١، ٣٢، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ٤٠، ٤٧، ٥١، ٥٤، ١٦٥.

[٢] تراجمهم في أخبار السيرافي، ٣٨ وما بعدها، طبقات الزبيدي، ٧٢، ٩٩.

إحياء عِلمه، وعِلْم شيخه فألّف كتابه الشهير، وفي غضون ذلك فكّر بالالتحاق بديوان الخلافة العباسية ببغداد، بعد أن سبقه إليها الكسائي الكوفي [١]، وأصحابه وهو يشعر بأفضليّته وأعلميته من هؤلاء، فهاجر إلى بغداد، وهناك وقعت المناظرة المشهورة بـــ(المسألة الزنبورية)[٢]، والتي هيّأ لها الكوفيون سُبل النصر لَهُم، ونجحوا في إبعاد سِيبَوَيه من بغداد، فخرج منها، وتوّجه إلى بلاده، مروراً بالبصرة، لتوديع تلميذه الأخفش سعيد بن مسعدة، وأخبره بما جَرَى [٣]، وسافر إلى بلاده، وأقام هناك مدّة، والغمّ والهمّ قد سيطرا عليه؛ بسبب خسارته في مناظرة بغداد، وصادف أن أصيب بمرض في معدته، فكان سبباً لوفاته (سنة ١٨٠هـــ) على أرجح الروايات، ودُفِن في شيراز، أو في مدينة مجاورة، وقيل: وما قتلَه إلاّ الغمّ لِمَا جرَى عليه [٤].

***

---

[١] ترجمته في طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ١٢٧.

[٢] طبقات الزبيدي، ٧٠، ومجالس العلماء للزجاجي، ١٠٨، ومعجم الدباء ١٦/ ١١٩، وإنباه الرواة: ٢/ ٣٤٨، والأشباه والنظائر: ٣/ ١٥.

[٣] سافر الأخفش إلى بغداد، وانتصر لسِيبَوَيه وخطّأ الكسائي في حلقته بمسائل كثيرة، ولكن دهاء الكسائي احتواه وضمّه إلى جانبه.

[٤] طبقات الزبيدي، ٧٠.

# كتاب سِيبَوَيه

هو أوّلُ كتاب نحوي متكامل يصل إلينا، فَقَدْ جاء بمادة شاملة لمسائل النحو بقواعدها، وشواهدها الشعرية والنثرية، مع خلاصة آراء نحاة القرن الثاني للهجرة التي سجّلها بدقّة وأمانة، مع بيانها وتحليلها، والإضافة عليها مستعيناً بذكائه المتوّقد، وفطنته المستنيرة، ونظراته الصائبة، فكانت مادة الكتاب خطًّا لَمْ يستطع النحاة من بعده – تخطّيه، حتى سُمّي كتابه بـــ(قرآن النحو)؛ إجلالاً له، وأغلب ما تناوله النحاة من بعده هو: شرح لمادّته النحوية، أو تحليل لنصوصه، أو التعليق عليها، أو اختصارها، أو شَرْح شواهدها، أو نقدها.

***

- ومادة كتاب سِيبَوَيه النحوية منها أو اللغوية قد أدهشت العلماء من بعده سواء أكانوا عَرَباً أم غربييّن.
- وما يعنينا منْها – هنا – هي المادة الصوتية التي تدخل ضمن ميدان علم الأصوات [1]، وقد جاءت في موضعين من كتابه:

---

[1] لا يفوتنا أن نذكر جهود علماء قبل سِيبَوَيه أدركوا أهمية الدراسات الصوتية سواء أكانت بإشارات أولية كما وصلنا عن أبي الأسود الدؤلي، ويحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم، أو بدايات حقيقية بالدراسات الصوتية العلمية على يد شيخ سِيبَوَيه الخليل بن أحمد الفراهيدي. تراجمهم في طبقات الزبيدي، ٢١، ٢٧، ٤٧.

- أوّلهما: مباحث متفرّقة في أبواب المسائل النحوية، كالحديث عن الهمز، والإمالة، والوقف، والتضعيف.
- وثانيهما: مباحث جاءت تحت باب الادغام، وهو الباب الرئيسي الذي خصّه بدراسته الصوتية، والتي ختم بها مادة كتابه.

***

- أما مادّته الصوتية فقد جاءت على ضربين:

- أوّلهما: ما دوّنه لوصف النظام الصوتي في اللغة العربيّة، من تَحديد الأصوات العربيّة المنفردة من حيث مخارجها، أو صفاتها.
- وثانيهما: ما دوّنه لِوَصف ما يطرأ على هذه الأصوات حال اقترانها، والآثار التي تترتب على هذا الاجتماع، وهو ما عُرِف الآن بِـــ(ظواهر التشكيل الصوتي) من: إعلال، وإبدال، وإمالة، وإدغام، ومخالفة، وحَذْف، وقَلْب، وتضعيف، ووَقْف [1].

***

- وممّا تجدر الإشارة إليه، أنّ دراسته الصوتية انْحَصَرت في الجانب النطقي وهو أقدم الدراسات الصوتية، لإمكان اعتماده على الملاحظة الذاتية للأعضاء المرئية من جهاز النطق، والإفادة من التذوّق الشخصي لعمليّات النطق، وهو جانب يعدّ من ألصق الجوانب بِعَمَل اللغويّ؛ لأنها أحداث لغوية منطوقة،

---

[1] ليس من منهجنا مناقشة صحة وضع سِيبَوَيه لهذه الموضوعات الصوتية، في آخر الكتاب أو لا.

فهي من صميم مجاله الدراسي، في حين أن الجانبين (الفيزيائي والسمعي)[١]، من الدراسات الصوتية لا تتمّ دراستهما إلاّ بالاستعانة بالوسائل المعمليّة، والعمليات التشريحية وهُما مِمّا حُرِم منها زَمَن سِيبَوَيه الموغل في القِدَم، ولهذا اقتصرت دراسة سِيبَوَيه على (علم الأصوات النطقي)[٢].

***

[١] أبدع المسلمون فيما بعد عهد سِيبَوَيه على يد فلاسفتهم نظير الشيخ الرئيسي ابن سينا (٤٢٨هـ)، في الجانبين الفيزيائي والسمعي في رسالته (أسباب حدوث الحروف)، وكتابه (السماع الطبيعي) من موسوعة الشفاء (القاهرة، ١٩٨٣)، ينظر: كتاب علم الأصوات عند ابن سينا (الأسكندرية، دار المعرفة)، وكتابه أسباب حدوث الحروف، (دمشق، ١٩٨٣).

[٢] الكتاب: ٤/ ٤٣٦.

# أهداف سِيبَوَيه

ذكر سِيبَوَيه نفسه الهدف من دراسته الصوتية في قوله: "وإنّما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات؛ لِتَعْرف ما يُحسن فيه الادغام، وما يجوز، وما لا يَحْسُن فيه ذلك، ولا يجوز فيه، وما تُبْدِله استثقالاً كما تدغم، وما تخفيه، وهو بزنة المتحرّك".

ومن هذا القول تتبيّن لنا أهدافه من دراسته الصوتية، وهي:

أوّلاً: لزوم إجادة نُطق الأصوات منفردة من حيث المخرج والصِّفة. ومنتظمة من حيث الفكّ والادغام، أو الفَتْح والإمالة، أو الإبدال، أو الإخفاء.

ثانياً: معرفة أسباب ثِقَل جملة من الصّيغ الصرْفيّة التي يهرب منها الناطق؛ لِعَدم خفّتها.

ثالثاً: معرفة التعليل الصوتي للتغيرات التركيبية من إدغام، أو إعلال، أو إبدال، أو توافق حركي من إتباع، أو إمالة، أو مخالفة .

أما الأهداف الرئيسية لنشأة الدرس الصوتي قبل سِيبَوَيه وبعده فتتمثل في:

أ- بروز ظاهرة اللحن الذي كان الانحراف في النطق أحد صوره.

ب- ضمان حُسْن أداء ترتيل الآيات القرآنية الكريمة.

ت- بروز دوافع لغوية حفزّت العلماء على الدراسة الصوتية للإفادة منها في مستويات لغوية أخرى، منها:

- ترتيب الألفاظ داخل المعجمات التي راعت الترتيب الصوتي للحروف.
- تحديد التشكيلات الصوتية للكلمات العربيّة لمعرفة ما يأتلف منها مما لا يأتلف.
- إحصاء الأصوات العربيّة الدائرة في استعمال من حيث كثرة دورانها وقلّته، وغيرها.

***

## أبرز المستشرقين الذين تناولوا الدراسات الصوتية العربيّة:

الأمور التي أشرنا إليها سواء أكانت أهدافاً خاصة، أم أهدافاً عامة مجتمعة في ذلك الزمن القديم لفتت أنظار الباحثين الأوربيين لريادتها في الميدان الصوتي، ودقّة معالجاتها فتناولوها بالدراسة.

ومن أبرز الذين تناولوها على مستوى العربيّة الفصحى كما ذَكَرَ المستشرق الفرنسي (جان كانتينو) [1] :

| | | |
|---|---|---|
| غ. أ. فالين | Wallin | عام ١٨٥٣ |
| أ. برُوكِه | A. Brucke | عام ١٨٦٠ |
| ر. لِبْسيوس | R. Lepsius | عام ١٨٦١ |
| ك. فُولارس | K. Vollers | عام ١٨٩٣ |
| أ. شاده | A. Schaade | عام ١٩١١ |
| ج. برجشتراسر | G. Bergstrasser | ١٩١٥، ١٩٢٤، ١٩٣٤ |
| م. برافمان | M. Bravman | ١٩٣٤ |
| أ. بريتزل | O. Pertzl | ١٩٣٤ |
| و. هـــ. ت. غاردنير | W. H. T. Gairdiner | ١٩٣٥ |
| ج. كانتينو | Jean. Cantineau | ١٩٦٠ |
| هـــ. افليش | Henri. Fleisch | ١٩٦١ |

***

[1] دروس في علم أصوات العربية: ٢٠١.

فالدكتور (أرتور. شاده) أحد هؤلاء الذين فُتِنوا بالدراسات الصوتية العربيّة، وكان موضوع أطروحته لِنَيْل درجة الأستاذية بعنوان (علم الأصوات عند سِيبَوَيه)، وقد نُشِرت في ليدن عام ١٩١١م. وفي أثناء عمله في مصْر لَخّص هذا الموضوع بمحاضرة هي أصل مادة هذا الكتّيب الذي وسمه بِـ(علم الأصوات عند سِيبَوَيه وعندنا) ألقاها في الجمعية الجغرافية الملكية في القاهرة، ونُشِرت لأوّل مرة في صحيفة جامعة فؤاد المصرية/ السنة الثانية/ العددين الخامس والسادس/ ١٩٣١م.

## أرتور شاده Arthur- Schaade ١٨٨٣- ١٩٥٢م

**أ. نشأته ودراسته [١]:**

ولد شاده في ١٨٨٣/٨/١٩ بمدينة (تورن) غرب بروسيا، وتعلّم في مدارسها، وحصل على شهادة الثانوية منْها، ثمّ واصل دراسته العالية في جامعات ميونيخ، ولايبزك، وبرلين، وحاول جاهداً تعلّم اللغات الفرنسية، والانجليزية، ثمّ تحوّل إلى دراسة اللغات الشرقية: الفارسية، والتركية، والعربية، وجذبته دراسة اللغة العربيّة الفصحى.

**من أبرز أساتذته:**

أوغست فيشر، وبإشرافه كتب بحثه الأوّل للشهادة العالية عام ١٩٠٨ الموسوم بـــ(تعليقات السهيلي وأبي ذر على قصائد أُحُد في سيرة ابن هشام)، وقد نُشِرت في سلسلة دراسات لايبزك السامية عام ١٩٢٠م.

ساهم الأستاذ أ. شاده ما بين ١٩٠٦-١٩١٠م في تحرير المادة العلمية للموسوعة الإسلامية، وفي الوقت نفسه عمل محاضراً للغة العربيّة في الجامعة، وعمله في هذه الموسوعة زاد من اتّساع معارفه الإسلامية، وعمّق مفاهيمها في ذهنه، وخاصة عندما ذهب

---

[١] اعتمدنا في ترجمة (أرتور شاده) على ما نُشِر في مجلة الإسلام باللغة الالمانية – العدد ٣١ عام ١٩٥٤، صوّرها الأخ الدكتور حازم الحلّي مشكوراً، وقرأها لي الأخ الدكتور أحمد هبو أستاذ الدراسات اللغوية القديمة بجامعتي صنعاء وحلب. جزاها الله تعالى خيراً.

إلى هولندا، وصحب أكبر المستشرقين العاملين في الميدان الإسلامي مثل:

١- Snuck Hurgron

٢-ومن أصدقائه الأستاذ Th. W. Juynboll الذي ألّف (الوجيز في التشريع الاسلامي، على وفق المذهب الشافعي، ليدن، ١٩١٠).

٣-وكذلك الأستاذ VAN. Arendonk، وهؤلاء ممّن اتّسموا بالترجمات الدقيقة الأمينة للمعارف الإسلامية، ثم عاد إلى ألمانيا؛ ليكمل كتابة أطروحته للأستاذية (علم الأصوات عند سِيبَوَيه) بإشراف (Frazn. Praetorious) في مدينة (Breslau) عام ١٩١١.

***

وكان من أبرز سمات بحثه أمران:

١- الترجمة الحرفية والأمينة للجزء الخاص بالأصوات من كتاب سِيبَوَيه.

٢- المحافظة على مصطلحات سِيبَوَيه، وعدم الابتعاد عنها.

وبعد بحثه هذا أصبح أ. شاده استاذاً جامعياً للغات السامية، والفارسية، والتركية، ثم سافر إلى مصر بناء على طلب الحكومة المصرية؛ ليعمل نائباً لمدير المكتبة الجغرافية الملكية بالقاهرة، وقد كان فَرحاً بعمله الجديد؛ ليعيش في أحضان اللغة العربيّة؛ وليسمع أداءها من أبنائِها أنفسهم، ولكنْ خاب أمله بعد تسلّمه العمل الإداري، ومعاناته من المشاغل الكثيرة، وبسبب اندلاع الحرب

العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨)، انتهى عمله في مصر بعد تسعة أشهر، وعاد إلى بلده؛ ليلتحق بالجيش الألماني، ويعمل مترجماً من التركية إلى الألمانية في دول متعددة من الشرق الأوسط، بعد هذا عاد إلى مدينة (Breslau) ليعيش فيها، ويتعامل مع أساتذة جامعتها في الساميات، نظير Arno- Poebeil، وBruno- Meissner، وفي العام ١٩١٩ عُيّن أستاذاً للغات السامية في جامعة (همبورغ)، وبقي فيها حتى تاريخ تقاعده في العام ١٩٥١، وفي غضون هذه المدّة الزمنيّة قُيض له أن يعود إلى الشرق مرّة أخرى ما بين ١٩٣٠- ١٩٣٤ للعمل بجامعة فؤاد (آنذاك) بالقاهرة ليحاضر في اللغات السامية، وكانت لغة تدريسه هي اللغة العربيّة، وفي هذه المدّة ألقى محاضرته عن (علم الأصوات عند سِيبَوَيه) مادّة هذا الكتيب.

***

## من مؤلفاته ومقالاته:

الأستاذ أ. شاده مُقلّ في التأليف، وأبحاثه التي كتبها هي أبحاث قصيرة، لكنها تتّسم بالنضج، والدقّة المتناهية في الأفكار المطروحة؛ لأنه لا يعتني إلاّ بالأمور المؤكّدة المُدعمة بالشواهد، ويبتعد عن الآراء والأفكار الافتراضيّة والاحتمالية فعلى الرغم من اتّساع معارفه في مجال الدراسات الإسلامية، والتصوّف خاصة لم يجد الرغبة للتأليف فيها، وهو معروف أيضاً بإعادة النظر فيما يكتب لمرّات عديدة.

عِلْمُ الأستاذ شاده الحقيقي يبرز في محاضراته الجامعيّة التي حَرص على أن يتهيّأ لها جيّدا من حيث المادة، والعَرْض، والاستشهاد، والنقد، فهو محاضر ناقد من الطراز الجيّد، وكذا هو مترجم أمين دقيق من اللغة العربيّة إلى اللغة الألمانية وبالعكس، وعنايته باللغة العربيّة لا تعني ابتعاده عن اللغات الساميّة الأخرى، وقائمة مؤلّفاته تشهد بذلك، وكان موضوع الأصوات في اللغات الساميّة والشرقية هو الذي يثير اهتمامه دائماً.

**وأبرزها:**

١- تعليقات السهيلي وأبي ذر على قصائد أُحُد في سيرة ابن هشام (لايبزك، ١٩٠٨).

٢- علم الأصوات عند سِيبَوَيه (ليدن، ١٩١١).

٣- الإسلام والكحول (برلين، ١٩١٣).

٤- هارون الرشيد في التاريخ (برلين، ١٩١٤).

٥- انطباعات عن الشعر العراقي المعاصر (مجلة الآداب الشرقية، ١٩٢٦).

٦- جملة الاسم الموصول في اللغتين العربيّة والسريانية (مجلة إسلاميكا، ١٩٢٧).

٧- الحركات في الكلمة العربيّة، وفي اللغة التركية العثمانية (همبورغ، ١٩٢٧).

٨- الجنس في اللغات السامية (مجلة Z. S ، ١٩٢٧).

٩- رائد الحداثة العربيّة في مصر محمود تيمور (جريدة همبورغ، ١٩٢٨).

١٠- أحمد تيمور والنهضة العربيّة (مجلة الآداب الشرقية، ١٩٣٠).

١١- محاضرة في (علم الأصوات عند سِيبَوَيه وعندنا) (صحيفة الجامعة المصرية، ١٩٣١).

١٢- رسم لغةأجنبيّة بالخطّ العربي (صحيفة الجامعة، ١٩٣٣).

١٣- أصل قصص أبي نؤاس في ألف ليلة وليلة (جريدة المستشرقين، ١٩٣٤).

١٤- مرة أخرى عن أبي نؤاس (جريدة المستشرقين، ١٩٣٦).

١٥- اللغات الساميّة أعمال في الصوتيات (مجلة صوتيات، ١٩٣٧).

١٦- مقالات متنوّعة في الموسوعة الإسلامية.

١٧- تعقيبات متنوّعة على كتب صدرت في عَهْده.

***

# مُحاضرتَه حول دراسة سِيبَوَيه الصوتية وفقراتها

ما يهمّنا الآن فهو (محاضرة علم الأصوات عند سِيبَوَيه وعندنا) فقد اختار (الأستاذ أ. شاده) جملة من المسائل الصوتية التي أثارها سِيبَوَيه تحت (باب الإدغام) من كتابه، وأعطى (أ.شاده) فيها رأيه، ورأي علماء عصره، وكان حديثه عن اختياراته مجملاً، عامًّا، استطعت أن أميّز بين فقراته بوضع عنوان لكل فقرة محصور بين قوسين معقوفين [ ] فأصبحت مادّة المحاضرة مشتملة على ما يأتي:

- الأصوات أساس الدراسة اللغوية.
- كيفية إحداث الأصوات اللغوية.
- موضوع علم الأصوات.
- جهود الشعوب القديمة في الدراسات الصوتية.
- من أسباب نشأة الدراسة الصوتية العربيّة.
- أوّل الدراسات الصوتية المفصَّلة.
- جهاز النطق في دراسة سِيبَوَيه.
- وصف سِيبَوَيه للأصوات.
- عوامل تكوين الصوت.
- مخارج الأصوات واصطلاحات أخرَى.
- قوّة الصوت.
- العارض وإزالته.
- تيّار النَّفَس.

- مذهب سِيبَوَيه في تقسيم الحروف.
  - الشديدة والرّخوة.
  - المتوسّطة بين الرّخوة والشديدة.
  - المجهورة والمهموسة.
  - المطبقة والمنفتحة.
  - الغُنّة.
- مواضع انتاج الأصوات.
- الحركات.
- ملاحظات تمهيديّة حول التشكيل الصوتي.
- من أهداف الإدغام.
- التْماس الخفّة والحِرْص على البيان.
  - المضارعة.
  - الوقف على الهمز.
  - الكسْكسْة.
- الإمالة وموانعها.
- الفتح.
- الإدغام.
- فَضْل سِيبَوَيه.
- المخالفة.
- الوَقْف.
- سِيبَوَيه وعِلْم الأصوات.

***

وقد أبدى (أ. شاده) رأيه في كُلّ مسألة صوتية ذكرها سِيبَوَيه ما بين مادحٍ، وناقدٍ مُنصف.

**فممّا امتدحه فيه هو:**

- الريادة في بحث هذه المسائل.
- إدراكه لمعنى الصوت، والعوامل المشتركة في إنتاجه.
- تقسيمه الصحيح للأصوات على وفق المخارج، والصفات.
- صحّة تحديد مخارج الأصوات.
- صحّة آراء سِيبَوَيه ووضوحها في صفات الشدّة، والرخاوة، والإطباق، والغُنّة.
- اكتشاف قانون الإدغام الذي لَمْ يهتدِ إليه عِلْم الأصوات المعاصر إلاّ في عهد متأخّر.
- إدراكه لظاهرة الإمالة، وأسباب حدوثها، ومواقعها.
- إدراكه لظاهرة الفَتْح (عكْس الإمالة)، وعلّة حدوثها.

***

**وممّا اعترض عليه هو:**

- الخَلْط بين مصطلحي (الحرف، والصوت) علماً أنه أمر وقع به المحدثون أيضاً.
- استعمال مصطلح (المخرج).
- وَصْف بعض الأصوات بما يخالف الوَصْف المعاصر.
- عدم ايضاح معنى الجَهْر، والهَمْس.
- عدم عَدّ الحركة عُنصراً أساسيًّا في بِنْية الكلمة.
- عدم الدقّة في تفسير بعض الظواهر الصوتيّة.

وهذه في مجملها – اعتراضات باحث عاش في القرن العشرين على باحث عاش في حقبة زمنية متقدّمة مرّ عليها أكثر من أربعة عشر قرناً، وهو أمر غير مقبول أساساً، لكنّ قوّة دراسات سِيبَوَيه تجعلها مستعدّة للمقارنة، ومع هذه الاعتراضات صرّح شاده:

**بأنّ هذه الاعتراضات لم تنقص من فَضْل سِيبَوَيه وأنّه مفخرة من مفاخر العرب.**

# النصّ الكامل لمحاضرة أرتور شاده والتعليق عليها

# [الأصوات أساس الدراسات اللغوية]

كلُّ من كان قد اشتغل بدراسة بعض اللغات وتدريسها عَلِمَ أن أساس مطالعتها هو (علم الأصوات)[١]، فإنّ الأصوات هي العناصر التي رُكّبت منها كلمات كلّ لغة[٢]، فلا فائدة من مطالعة المفردات [٣]، والصرف [٤]، والنحو [٥]، إلاّ بعد معرفة الأصوات الموجودة في اللغة التي نقصد دراستها [٦].

---

[١] هو العلم الذي يدرس الصوت البشري لغوياً.

[٢] الأصوات هي العناصر الصغرى التي يتألف منها الكلام.

[٣] من ضروريات دراسة المفردة معرفة الصورة النطقية السليمة لأصوات بنيتها.

[٤] كثير من التغيرات الصرفية مبنية على أسس صوتية كالإبدال في (اصطبر) بفعل قانون المماثلة.

[٥] هناك ظواهر نحوية لا يمكن تفسيرها ما لم نقف على النظم الصوتية التي تحكم عناصر التركيب، فكسر السين في فعل الأمر (ادرس النحو) لا يفهم إلاّ من خلال الدرس الصوتي الذي يبين هروب العربيّة من توالي صامتين في وَصْل الكلام.

[٦] هناك تشابك في مستويات الدرس اللغوي، وهو أمرٌ لَمْ يغِب عن فِكْر النحاة العرب، وقد خصّوا الدرس الصوتي بباب مستقل في كتبهم النحوية والصرفية، باسم (باب الإدغام) إلاّ أنهم لم يوفقوا في وضعه بمكانه السليم وهو الصدارة في مباحثهم.

# [كيفية إحداث الأصوات اللغوية]

فإذا كانت أهمية الأصوات مثل ما قلنا، يصحّ أن نسأل:

**ما هي الأصوات؟ ، وكيف تُنتَج؟**

**فالجواب:** إنَّ الأصوات اللغوية هي ظواهر سمعية [١]، تحدث بأنّ تيّار النَفَس الخارج من الرِئَة يعرض له في الحنجرة، أو في الفم، أو بين الشفتين عارض يُضيِّق طريقه، فلا يحدث صوت إلاّ بعاملين:

**أحدهما:** النَّفس.

**وثانيهما:** العارض [٢]:

هذه هي القاعدة، ولا يخفى عليكم أنَّ هناك صوتاً واحداً يخرج منها هو (الهاء)، فإنّها ليست إلاّ مجرد النفس بلا عارض يعرض له[٣]، فَلَعلّه يجوز أنْ نقول: إنَّ الهاء هي صوت ناقص[٤]،

---

[١] ظواهر سمعية تصدر طواعية واختياراً ممّا يُعرف بجهاز النطق.

[٢] سبقه ابن جني في ذكر العاملين بقوله: "اعلم أن الصوت عَرَض يخرج مَعَ النفس... حتى يعرض له في الحلق، والفم، والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده".(سر صناعة الإعراب:٦/١)،وقد اعترف الفرنسي كانتينو بإدراك العرب لعملية إحداث الصوت (دروس في علم أصوات العربيّة: ٢٠).

[٣] **ليس الكلام على إطلاقه، فالعارض موجود وهو نوع من الاحتكاك** في الحنجرة – أقصى الحلق عند القدماء – وقَدْ يضعف هذا الاحتكاك في بعض السياقات الصوتية كالهاء في كلمة (كتابه)، وقد أدرك سِيبَوَيه هذا الضعف فقال: "لما فيه من الضَّعْف والخَفاء".

[٤] يريد أ. شاده نقص أحد العاملين، والأوفق حَمْل النقص على قِلّة الاحتكاك في مخرجها – الأمر الذي أدّى إلى ضعفها – لا إلى عدم وجود العارض.

وأؤمّل أن هذا الوصف لا يسوءها، وقد اكتشف علماء عصرنا (عاملاً ثالثاً) يعدّل الأصوات، وإن كان لا ينتجها، وهو (الرَّنين)[١]، ولكن يجوز لنا صَرْف النظر عنه؛ لأسباب ستتضح ممّا نقوله بعد.

فالعاملان اللذان يهمّاننا هما:

- النفس.
- والعارض [٢].

***

[١] الرّنين ليس عاملاً لإحداث الصوت، بلْ لتعديله وتقويته بالتفخيم، ولعل هذا السبب منع القدماء من الإشارة إليه عند حديثهم عن المخارج، وقد أضاف كانتينو عاملين، وهما: حركة الأوتار الصوتية، والغنّة الخيشومية، (دروس: ١٩)، وقد أدرك علماء العربيّة دورَ الغنّة في إحداث صوتي الميم والنون، والمقصود من الرنين هنا – ليس الرنين الفيزياوي (الاهتزاز) بل التفخيم الذي يصاحب بعض الأصوات بسبب التجويف الأنفي، أو الفموي، وعلى العموم فالرنين، وحركة الأوتار، والغنة، هي عوامل تقوية للصوت وليست عوامل إنتاج له، ولذا قال المحاضر: يجوز صَرْف النَّظرَ عنْه.

[٢] وهما عاملان أدركهما سِيبَوَيه ويتضحان من خلال وصفه للمخارج، أما ابن جنّي فقد صرَّح بهما في قوله السابق.

## [موضوع علم الأصوات]

والأصوات التي تحدث بعملهما[١]، هي موضوع العِلْم الذي نقصد أن نشتغل به اليوم، أعني (عِلْم الأصوات).

***

## [جهود الشعوب القديمة في الدراسات الصوتية]

وهو [٢]، عِلْم بذل فيه جهده غيرُ واحد من الشعوب المتمدنة[٣]، إلاّ أنهم لم يهتدوا إلى معرفته في وقت واحد، ولم ينجحوا فيه على حدٍّ سواء [٤].

أما الغربيون فلا يعرفون علم الأصوات معرفة تستحقّ الذِكْر إلاّ من مائة سنة[٥] على الأكثر، فإنّ ما كان لديهم قبل ذلك من هذا

---

[١] أي بعمل العاملين المذكورين هما: النفس والعارض وبعملهما، يحدث نوعان من الأصوات: أولهما: أصوات لغوية ذات دلالات تدخل ضمن ميدان النظام اللغوي، وثانيهما: أصوات غير لغوية، نظير أصوات الانفعال كالتأوّه، والتأفّف، والبكاء، وعبارة المحاضر مطلقة تشمل النوعين مع أنّ موضوع عِلْم الأصوات يدرس النوع الأوّل فحسب، ومع ذلك فلا أظنّ أن المحاضر يقصد النوع الثاني.

[٢] أي: علم الأصوات.

[٣] يريد شعوب (اليونان، والهنود، والعرب).

[٤] أي: إنَّ دراساتهم مختلفة منها ما هو البسيط، ومنها ما يشكّل دراسات متكاملة إلى حد ما، وكثير من جوانبها أيدها الدرس الصوتي المعاصر، وتابعها فيه.

[٥] من تاريخ إلقائه المحاضرة .

العلم لم يكد يتجاوز المبادئ الساذجة التي أسّستْها اليونان من ألفي سنة [١]، أو بِالأحَرَى [٢]، كان علمهم يقتصر على بعض التسميات قد ضاع معناها، لأَنَّ الأصوات الموجودة في اللغات الأوروبية العصرية تخالف الأصوات اليونانية القديمة كلّ المخالفة[٣].

ولم يكن هناك في الشعوب القديمة إلاّ شعبان قد بحثا عن كيفية الأصوات، وإنتاجها بحثاً فاقَ بحث اليونان دقّة وعُمقاً، وهما الهند والعرب، وبما أن الهند سبقوا العرب في وَصْفَ الأصوات بألف سنة أو أكثر [٤]، وزعم بعض المستشرقين أن العرب اقتبسوا علم الأصوات من الهند [٥]، ولكن مذهب العرب في دراسة الأصوات

---

[١] دراسة اليونان الصوتية أقوال متناثرة جاءت في مؤلّفات الفلاسفة، ففيها تقسيمات أوليّة للأصوات وغير متكاملة.

[٢] أي: جدير خليق. وستتكرر.

[٣] من هذا تحوّل (t, p في اليونانية القديمة إلى th,f) في الانجليزية، كما في (pater) التي أصبحت (father)، ومنه تحوّل (p) إلى (v)، في الألمانية كما في (pater التي أصبحت vater).

[٤] لعل البدايات الهندية الأولية لدراستهم الصوتية تعود إلى عصر بانيني (٦٠٠ ق. م) أما عصر المحاضرات التي وصلت فتعود إلى ما بين (٥٠٠- ١٥٠) ق. م.

[٥] أدلّة هذا الرأي ظنيّة احتمالية، والرأي العلمي لا يُبْنَى إلاّ على أدلّة قطعية.

يخالف مذهب الهند في نُقطٍ مهمة [١]، فتُرجَح أنّ العرب استحدثوا هذا الفن من المدارك العربيّة بأنفسهم [٢]، ولم يقتبسوه من أيّ شعب غيرهم [٣].

***

## [من أسباب نشأة الدراسة الصوتية العربيّة]

وإذا سأل سائل: ما هو الباعث الذي حثّ العرب على دراسة أصوات العربيّة، وعلى إنشاء قواعد لِنُطقها؟

أجبتهُ: يظهر أنّ هذا الباعث كان القُرآنِ الشريف [٤]، فإنّ العجم الذي أسلموا في القرنين الأوّلين من قرون الإسلام كان يهمّهم للغاية أن يُحسنوا قراءة المصحف الشريف، وينطقوا

---

[١] من ذلك: أ- اعتماد الأبجدية الهندية على المقاطع نحو (يا- خا- حا)، أما العربيّة فاعتمادها على الأصوات المفردة مثل (ب- ت- ث).
ب- الاختلاف في ترتيب الأبجدية اختلافاً داخلياً كبيراً.

[٢] في الأصل (بنفسهم)

[٣] وإلى هذا الرأي ذهب كل من بروكلمان، و د. حسين نصار، و د. عبد الله درويش و د. محمود حجازي، وهو رأي راجح على الرغم مِن سَبْق الهنود، ووجود بعض المشابه العارضة، إذ لا يوجد دليل قطعي على الاقتباس.

[٤] من أجل ضمان حُسن أداء تلاوة آي القُرآنِ الكريم، ومن ثمّ برزتْ دوافع أخرى منها:
- ترتيب الألفاظ داخل المعاجم التي انتهجت الترتيب الصوتي للحروف.
- تفسير الظواهر الصرفية والنحوية، وتحديد التشكيلات الصوتية للكلمة العربيّة.
- تحديد عيوب النطق ومعالجتها.

أصواته نطقاً عربياً خالصاً، ولَمْ يروا إلى ذلك سبيلاً إلاّ بعد تعميق المطالعة لأصوات اللغة العربيّة، وأحكام إنتاجها فيظهر أنّ حدوث عِلْم الأصوات عند العرب مقرون بنشوء علم التجويد [١]، كما أن الصرف، والنحو نشأ مصاحبين لِشَرْح القُرآنِ الكريم [٢]، والشعر.

***

## [أوّل الدراسات الصوتية المفصلّة]

وعلى كل فأوّل مَنْ خلّف لنا وصفاً مفصلاً لأصوات العربيّة، وانتاجها[٣] هو رجل فارسي الأصل، أعني (أبا بشر عمرا الحارثي) المعروف بـــ(سِيبَوَيه)[٤]، أو على الأصحّ (سيبُوْيَه)[٥].

---

[١] لأَنَّ علم التجويد هو تمثيل للجانب الأدائي لِعِلْم القراءات القرآنية، وهو جانب صوتي مَحْض، فموضوعه دراسة مخارج الأصوات، وصفاتها، وأحكامها التركيبية، وكلّ هذا أساس للدراسة الصوتية، فالتداخل بينهما واقع، لأَنَّ موضوعهما واحد.

[٢] أغلب العلوم اللغوية في بداياتها نشأت نشأة قرآنية، أي ابتدعت لخدمة النصّ القرآني وتفسيره، وبيان أحكامه.

[٣] الكتاب: ٤/ ٤٣١ (باب الإدغام) وهو مسبوق بما كتبه شيخه الخليل بن أحمد، **ولعلّ إيجاز دراسة الخليل جعل المحاضر يشير إلى دراسة سِيبَوَيه مباشرة.**

[٤] بفتح الباء والواو، بمعنى التفاح أو رائحته، ولقبه بالحارثي لأنه مولى بني الحارث (طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي/ ٦٦).

[٥] بضم الباء وسكون الواو وفتح الباء وهو نطق الفرس للاسم، أي كأنهم لا يريدون نُطق (وَيْه) في آخر الاسم، لِكَونها نُدْبة.

ولا يخفى أنّ هذا الوصف أدمجَه سِيبَوَيه في كتابه المشهور الذي هو مصدر كلّ ما أحدثه المتأخّرون من علماء العرب، ليس في علم الأصوات فقط، بل في الصرف، والنحو أيضاً.

***

## [جهاز النطق في دراسة سِيبَوَيه]

كان سِيبَوَيه يعرف من آلات النطق الطبيعية: الحلق، والفم وأجزائه كاللسان، والحنك الأعلى، والأسنان، ثمّ الشفتين، والأنف ويظهر من بعض ما يقوله في كتابه أنه يعدّ من آلات النطق: الصّدر [1]، أيضاً وليس ذلك غلطاً، لأَنَّ الصدر يحتوي على الرئة، والرئة هي مصدر النفس [2]، الذي هو – كما رأينا – جوهر كلّ صوت لغوي.

ويقسم سيبويه كلّ واحدة من آلات النطق المذكورة إلى أقسام، اكتفي بِذْكْر بعضها، لِئلاّ أُملّ سامعي.

نشاهد غاية التفصيل–مثلاً– في تقسيمه للأسنان، وقد قسّمها مبتدئاً من الوسط إلى الثنايا، والرباعيات، والأنياب، والأضراس[3].

---

[1] الكتاب ٤/ ١٧٤ وكذا ما رواه السيرافي عن سِيبَوَيه في شرحه للكتاب (٦/ ٤٦٢ مخطوط) وفي الكتابين ذُكر (صوت الصدر)، وكأنه أدرك صدى معيناً يخرج من داخل جهاز النطق، ولعلّه صوت حركة الأوتار الصوتية في الحنجرة.

[2] يقصد هواء الزفير الذي يحمل الأصوات معه.

[3] الكتاب: ٤/ ٤٣٣.

ويخالف هذا التدقيق معاملته للحلق[١]، فإن سِيبَوَيه وإن قسّمه[٢]، إلى أقصى الحلق، وأوسط الحلق، وأدنى الحلق، لم يكن يعرف الحنجرة[٣]، ولا أجزاءها كالمزمار[٤]، والأوتار الصوتية[٥].

وسبب الاختلاف واضح[٦]، فإن الأسنان مكشوفة للرُؤْية، وأمّا الحنجرة، وأجزاؤها، وعملها فتقتضي ملاحظتها إلى التشريح[٧]،

---

[١] الحلق: هو التجويف الذي يقع بين الحنجرة وأقصى الفم، وهو مخرج لما يُعرف بأصوات الحلق، كالهمزة، والهاء، والعين، والحاء....

[٢] مع قصر طوله.

[٣] تجويف يقع فوق القصبة الهوائية وأسفل منطقة الحلق.

[٤] هو الفراغ الكائن بين الوترين الصوتيين، وغطاؤه يسمى (لسان المزمار) وهو يحمي مجرَى التنفس في أثناء عملية الأكل والبلع.

[٥] هما شريطان عريضان يُشبهان الشفتين، يمتدان أفقياً، ويلتقيان عند البروز المسمى بـ(تفاحة آدم) وهما من أبرز أجزاء الحنجرة، ولأوضاعهما دور كبير في العملية الصوتية من حيث الاهتزاز الذي يسبب الجهر، وابتعادهما وعدم اهتزازهما الذي ينتج عنه الهمس، أو إغلاقهما تماماً الذي ينتج عنه (صوت الهمزة).

[٦] أي: بين التفصيل في الذِكّر في موضع، وعدم التفصيل في مواضع أخرى.

[٧] لم يعرف التشريح في الدراسة الصوتية عند العرب إلاّ في فترة متأخرّة عن سِيبَوَيه، فقد ظهر في دراسات الأطباء والحكماء التي كانت لهم عناية متميزة في هذا اللون من الدرس اللغوي ومنهم الكندي (٢٦٠هـ) في رسالته (اللثغة)، وابن سينا (٤٢٨هـ) في رسالته (أسباب حدوث الحروف)، وهما منشورتان.

وما أظنّ سِيبَوَيه يجترئ عليه، أو إلى بعض الآلات الفنية كـــ(منظار الحنجرة)[١]، أو الأشعة المجهولة [٢]، ولم يكن مثل هذه الآلات بين يديه، وكفَى بذلك عذراً يعتذر به سِيبَوَيه؛ لعدم معرفته بالحنجرة، وعملها، وإنْ ثبت أن الخلل المذكور [٣]، في مدارك سِيبَوَيه منعه مِنْ أنْ يفهم بعض المسائل الصوتية حق الفهم، كما سنرى فيما بعد.

هذا أهم ما وجب إيراده في آلات النطق الطبيعية، ومعرفة سِيبَوَيه بها.

***

[١] هو منظار يرصد حركة الوترين الصوتيين في أثناء النطق، بمساعدة ضوء خاص بوجه مرآة بذراع طويلة، توضع في أقصى الفم بشكل عمودي على الحنجرة فينعكس الضوء من المرآة على الحنجرة فيُرى بوضوح.

[٢] يمكن أن يصور حركة كلّ عضو من أعضاء النطق، وتزداد أهميتها في رصد الأعضاء غير المكشوفة للعين.

[٣] لعله يقصد الفارق بين وصفي سِيبَوَيه التفصيلي، والاجمالي.

# [وصف سِيبَوَيه للأصوات]

فَقَدْ حان لنا أنْ ننظر، أوْ بالأحرى نصغي إلى الأصوات المنتجة بواسطة هذه الآلات، وإلى وَصْف سِيبَوَيه لها، ولكن قبل الخَوْض في هذه الجزء من موضوعنا – وهو معظمه – لابُدَّ أن نسأل سؤالاً ابتدائياً هو:

**أَأدَركَ سيبويه (معنى الصوت) إدراكاً صريحاً؟**

فالجواب على هذا السؤال: نعم، أدركه.

ويدلّ عليه أنّه في بعض أماكن كتابه يفرّق بين الحروف أنفسها [١]، وأسمائها، يقول مثلاً في آخر (باب ما أُميل على غير قياس): "إنّه في حروف المعجم تجب إمالة (با) و(تا)؛ لأنّهما أسماء ما يُلفظ به"[٢].

ومن بواعث الأسف أنه في أكثر الأحوال عبّر عن الصوت المنطوق المسموع، وعن علامته المخطوطة المرئية بلفظ واحد، وهو (الحرف)[٣]. ولكن هذا التقصير هو خلل في الاصطلاح أكثر من كونه خَلَلاً في الإدراك، ويقتضي الإنصاف أنْ نعترف بأنّ

---

[١] في الأصل (نفسها).

[٢] الكتاب: ٤/ ١٣٥ وفي عبارة سِيبَوَيه دلالة واضحة على التفريق بين ما يُكتب، وما يُنطق.

[٣] في مثل قوله (فالمجهور حرف...) و (المكرر هو حرف...) وقصده في مثل هذا الصوت: المجهور، والصوت المكرر ومرد هذا الخلل في الاصطلاح هو أنهم وصفوا الأصوات من خلال الحروف.

كثيرين من العلماء الغربيين [١]، لم يعتادوا في هذه النقطة تعبيراً واضحاً إلى الآن حتى تجد غير واحد منهم يتكلم عن: (Pronunciation of letters) أو ( Pronunciation des letters) وإنما الصحيح: (Pronunciation of sounds) أو (Pronunciation des sons)[٢].

***

## [عوامل تكوين الصوت]

قد أشرنا في مقدمة هذه المحاضرة إلى أنّ العوامل المشتركة في انتاج صوت لغوي هي ثلاثة:

أوّلها: تيار النفس الخارج من الرئة.

ثانيهما: العارض الذي يعرض له، إمّا في الحنجرة، وإما في الفم، وإمّا بين الشفتين، أو بين الشفة السفلى، والثنايا العليا.

والعامل الثالث: هو (الرّنين) الذي يحدث في الفم، أو في الأنف، أو في الصدر. وقَدْ ذكرنا أَنّ هذا العامل زهيد الأهمية في دراسة أسلوب سِيبَوَيه، وسبب ذلك أَنّ سِيبَوَيه لم يعرفه، فإنّه وإنْ ذَكَر بعض الظواهر التي نعتبرها تأثير الرنين كـــ(غُنّة النون، والميم)[٣]، لمْ يفهم كيفيّتها كما سَنَرَى، وكذلك معرفته بالعامل

---

[١] بل حتى المحاضر نفسه (أ. شاده) تسامح في التعبير والخلط بين الحرف والصوت – كما سنرى في مواضع قادمة.

[٢] هذا تمثيل للخلط بين مصطلحي الحرف، والصوت.

[٣] الكتاب: ٤/ ٤٣٤، ٤٣٥.

الأوَّل – أعني تيّار النفس – ما زالت ناقصة، فإنّه لم يصلْ أبداً إلى فَرْق بَيِّن بينَ ذلك التيار نفسه، والأصوات التي ينتجها كما يتّضح من كونه يُعبّر عن كليهما بعبارة (الصوت). وقَلَّت في كتاب سِيبَوَيه المواضع التي ترينا أَنّه لمْ يقصد بعبارة الصوت (مجرد الظاهر السمعي) ولكنْ (سَببه) أيضاً [١]، وهو التيار المذكور.

ومن هذه المواضع ما قاله في أول (باب الوقف في الواو والياء والألف) حيث يقول: "هذه الحروف... مخارجها مُتّسعة لهواء الصوت"[٢].

ومثل ذلك يوجد في باب (عدد الحروف العربيّة ومخارجها)[٣]، ومع أن تيار النفس – كما رأينا – جوهر [٤] كل صوت لغوي، فليست معرفة سِيبَوَيه به تساوي إلمامه بالعامل الذي سمّيناه (العارض)، وعمله [٥]: أنه يُضيّق منفذَ النفس، أو يقطعه

---

[١] لعلّه تسامح في استخدام هذا من باب (الاتّساع الدلالي) فقد يُسمى الشيء باسم سببه، فالصوت عَرَض محمول مع الجوهر (تيّار النفس) أي: الزفير.

[٢] الكتاب: ٤/ ١٧٦.

[٣] الكتاب: ٤/ ٤٣٥.

[٤] كأنه اقتبس وصف التيار بالجوهر من العلامة ابن جنّي الذي وصف الصوت بأنه عرض يخرج مع النفس، ولمّا كان المحمول عَرَض فالحامل لابُدَّ من أن يكون جوهراً.

[٥] أي: عمل العارض.

في موقف من مواقف طريقه [١]، فيحدث الصوت، إمّا بأنّ النفس يهزّز العارض (الأوتار الصوتية مثلاً)[٢]، وإما بأنّ النفس يحتكّ عليه كاحتكاك النفس بين طرف اللسان واللثّة[٣]، في لفظ (الزاي، والسين، والصاد)، أو بأنّ النفس يفضّ سداً منع خروجه، كما يقع في النطق بالتاء والطاء مثلاً [٤]، وقدْ قُلنا: إنَّ سِيبَوَيه عَرَف العارض المنتج للصوت معرفة تفوق معرفته بتيار النفس، ولاسيما الرّنين، ومن طلب على ذلك دليلاً فَعَلَيه أنْ يقرأ كتاب سِيبَوَيه الباب الذي عنوانه (عدد الحروف العربيّة، ومخارجها، ومهموسها، ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها)[٥].

ولا يخفى عليكم أنّ هذا العنوان لا يخلو من الإسهاب، ولكن ذلك يصحّ عن أكثر عناوين كتابه، بلْ هو من سجيّة كتابه كلّه، وسبب ذلك واضح، وهو أن سِيبَوَيه كان طليعة مَنْ كتب في الصرف، والنحو، وعِلم الأصوات، ولمْ يكنْ له أَنْ يستعمل اصطلاحاً جاهزاً، بلْ اضطر أنْ يبتكر كثيراً من العبارات التي

---

[١] أي: في نقطة معينة من مجْرَى الصوت.

[٢] وهو ما يحدث مع الأصوات المجهورة.

[٣] أي: احتكاك يسمح لخروج هواء الزفير من منفذ ضيّق، كما هي الحال في نطق الأصوات الرخوة...

[٤] وهو ما يحدث مع الأصوات الشديدة (الانفجارية).

[٥] الكتاب: ٤/ ٤٣١.

كان يحتاج إليها ليعبّر عن مدارك يُحتمل أنّ المستحدث لكثير منها هو أيضاً [١].

وليس ذلك الإسهاب ينقص فَضْل سِيبَوَيه أقل إنقاص، أعني الفضل الذي له، بأنه في الباب المذكور من كتابه عيّن (مخارج الحروف) تعييناً يعسُرُ علينا إصلاحه[٢].

***

## [مخارج الأصوات، واصطلاحات أخرى]

**فما هي هذه المخارج؟**

أمّا سِيبَوَيه – نفسه – فعبارته: مخارج الحروف أو منافذها، ولا تصحّ هذه العبارة إلاّ على الاختصار، فإنّ ما يخرج من المخارج ليس هو الحرف نفسه، بل تيَّار النفس، الذي هو العامل الأوّل في إنتاجه [٣].

والنفس له طريقتان في الخروج:

– وإمّا حين وجود العارض [٤]، كما هي الحال في السين والصاد وغيرها من الحروف الرّخوة.

---

[١] وفي أكبر الظن أنه يقصد – أيضاً – إيضاح وبيان ما يرد من أفكار.

[٢] هذه شهادة منصف، ومثله قال المستشرق الفرنسي كانتينو: "لقد عرف هؤلاء النحاة النفس، ودرسوا دراسة تفصيلية النطق الفموي بجميع صفاته كما وصفوه وصفاً دقيقاً جداً"، وقال أيضاً: ونظرية مخارج الحروف عند النحاة العرب نظرية أحكموا ضبطها بعناية. (دروس في علم أصوات العربيّة: ٢٠، ٢١).

[٣] والحامل للصوت أيضاً.

[٤] من خلال منفذ ضيّق يحدث في نقطة معينة من مجرَى النَّفَس.

– إمّا بعد زوال العارض، كما في التاء والطاء، وسائر الحروف الشديدة.

وما عَدا المخرج والمنفذ يوجد عند سِيبَوَيه اصطلاحان يرادفهما في بعض الأحوال وهما: الموضع، والمعتمد [١]، والمقصود منْهما: الموضع الذي يضيق طريق النفس [٢]، أو يقطع[٣]، وقد حزرتم غالباً أن هذا الموضع أو المعتمد: هو موضع العارض الذي قد أكثرنا الكلام عنه، وتدركون بلا صعوبة – أيضاً – أنه من الممكن – وليس من اللازم – أنْ يكون موضع العارض مكان خروج النفس يعني: مخرج الحرف، حسب اصطلاح سِيبَوَيه، فإذا نطقنا بـــ(باء) – مثلاً – نقطع طريق النفس بشفتينا، فبينهما موضع (الباء)، ثم نُزيل الشفة السفلى عن الشفة العليا، ونُخرج النفس من بينهما، فهناك (مخرج الباء) أيضاً [٤].

ويخالف هذا الحال حال الميم – مثلاً – فإنّ موضعها الشفتان كموضع، الباء، ولكن مخرجها ليس من الشفتين بلْ مِن الأنف [٥].

---

[١] الكتاب: ٤/ ٤٣٤ وما بعدها....

[٢] مع الأصوات الرخوة (الاحتكاكية).

[٣] مع الأصوات الشديدة (الانفجارية).

[٤] يريد أن يقول: إنَّ مخرج صوت الباء، وموضع خروج النفس هو واحد.

[٥] يريد أن قطع الصوت بواسطة العارض مع الميم يكون ممّا بين الشفتين، غير أنّ هواء الصوت يتسرّب من الأنف.

ويصحّ مثل ما قلنا في (الباء والميم) عن (الدال والنون) أيضاً، إلاّ أن موضعهما هو اللّثة [1]، أو – حيث كان سِيبَوَيه لا يعرف بعدُ عبارة اللّثة – [2]" بين طرف اللسان وأصول الثنايا"[3].

فها هو قول سِيبَوَيه نفسه: "ومنها [يعني من الحروف][4]، حرف شديد يجري معه الصوت، لأَنَّ ذلك الصوت غنّة من الأنف، فإنما تخرجه من أنفك، واللسان لازم لموضع الحرف [5]، لأنك لو أمسكت بأنفك [6]، لم يجْرِ معه الصوت، وهو النون، وكذلك الميم"[7].

***

---

[1] يريد أن مخرج الدال والنون من اللثة، وتنفرد النون بغنّة من الأنف...

[2] وصفُ سِيبَوَيه بأنه لا يعرف مصطلح اللثة غير دقيق في أكبر الظن، فقد ورد المصطلح في كتاب شيخه الخليل بن أحمد (العين)، وسيبويه ملازم للخليل قبل سفره إلى بلاد فارس وبعد عودته، ولكن اسهاب سِيبَوَيه ميل إلى التدقيق في وصف المخارج، وزيادة الإيضاح لِعِلْم لم يألفه العرب بعد.

[3] يقصد مخرج الدال (الكتاب: ٤/ ٤٣٣).

[4] عبارة (يعني من الحروف) زيادة من المحاضر على قول سِيبَوَيه للإيضاح.

[5] هذا التمثيل لمّا يكون عارضُه في الفم، وخروج هوائه من الأنف.

[6] عبارة (مسك الأنف...) دليل على العناية بالمنهج التجريبي.

[7] الكتاب: ٤/ ٤٣٥.

## [قوّة الصوت]

ولم يُفت سِيبَوَيه –كما قدْ رأينا، وكما سنرَى– أنَّ العارض المنتج للصوت يختلف مكاناً، ودرجة، ومدّة، وقوّة، إلاّ أنّه يعدّ قوة النطق من مميزات الحروف المجهورة [١]، ولسنا بمقتنعين أن ذلك صحيح [٢].

***

## [العارض وإزالته]

أمّا اصطلاح سِيبَوَيه للعارض فقدْ ذكرْنا أنّه (الموضع)، وأمّا إزالة العارض فيعبر عنها برفع اللسان [٣]، ومن الغريب أن سِيبَوَيه يستعمل هذه العبارة حتى عن حرف لا نصيب للسان في إخراجها كـــ(الواو) مثلاً [٤].

---

[١] الكتاب: ٤/ ٤٥٠.

[٢] لم تكن عند سِيبَوَيه والقدماء ضوابط دقيقة لقوة الأصوات وضعفها، وما جاء عنهم كلام نسبي في مواقع صوتية معينة (ينظر: كتابنا دراسات لغوية في تراثنا القديم، د. صبيح التميمي، عمان، دار مجدلاوي، ٢٠٠٣، ص٥٦ وما بعدها.

[٣] الكتاب: ٣/ ٥٣٠.

[٤] الكتاب: ٤/ ٤٤٢، حديث سِيبَوَيه هنا عن الواو غير المدّية في مثل (اخشوا واقدا) وهذه الواو للسان فيها نصيب، وتكييف معين حال نطقها يختلف عن شكل الفم مع الواو المدّية، فهناك حركة في أقصى اللسان مع غير المدية، بالإضافة إلى استدارة الشفتين، فلعلّ سِيبَوَيه أحس بهذا الوضع النطقي، والدرس الحديث معه في هذا التحديد.

## [تيار النفس]

ولابد أن ندمج هنا ملاحظة؛ لئلاّ يشتبه أحد بين اصطلاح سِيبَوَيه واصطلاحنا، أمّا نحن فقدْ تيقّنا أنّ تيار النفس هو أساس كلّ صوت لغوي مهْما كان نوعه [١].

أما سِيبَوَيه فَلَمْ يعنَ النفس إلاّ لنوع مخصوص من الحروف، وهي المهموسة[٢]، ويتّضح لنا سبب هذا الغلط حين نخصّ النظر إلى صفات الحروف المجهورة، والحروف الشديدة[٣].

---

[١] لا أظن أن سِيبَوَيه يخالف هذا التصور، بدليل تعبيره أحياناً عن تيار النفس بـــ(هواء الصوت)، من ذلك قوله: "ومن الحروف الشديدة وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه"، مع أن المنع لتيار النفس الذي يحمل الصوت، إنْ لمْ يكنْ هذا الرأي واضحاً عند سِيبَوَيه فقد صرّح به ابن جنّي في كتابه (سر صناعة الاعراب ١/ ٦).

[٢] أخذ المحاضر هذا الرأي من تعريف سِيبَوَيه للمهموس الذي ذكر فيه جَرْي النفس (الكتاب: ٤/ ٤٣٤).

[٣] اعتمد المحاضر في تغليطه هذا على أن سِيبَوَيه ذكر (مَنْع النفس) مع المجهورة، وعدم ذِكرْ النفس مع الشديد، وسيأتي ذكرهما.

# [طريقة سِيبَوَيه في تقسيم الحروف]

**١ – الشديدة والرخوة:**

ويهدينا ذلك [١]، إلى مذهب سِيبَوَيه في تقسيم الحروف، لا يدهشكم بعد ما اسلفنا أنّ سِيبَوَيه لمْ يلُمّ في تقسيم الحروف بِوجْهة نظر مثل ما ألَمّ بكَوْن العارض كاملاً حتى يقطع مخرج النفس تماماً، أو ناقصاً؛ حتى يُبقي له مخرجاً واسعاً كان، أوْ ضيقاً، ويعبّر سِيبَوَيه عن النوع الأوَّل بالحروف الشديدة [٢]، وعن النوع الثاني بالحروف الرخوة [٣]، وها هو قوله في هذين النوعين: "ومن الحروف (الشديد) وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، وهو الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والتاء، والدال، والباء، وذلك أنك لو قلتَ: الحَج، ثمّ مددْت صوتك لمْ يجرِ ذلك، ومنها [أي: من الحروف] الرخوة وهي: الهاء، والحاء، والغين، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال، والفاء، وذلك أنك إذا قلت: "الطَّس، وانقض وأشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت"[٤]، فيتضح من ذلك أن سِيبَوَيه

---

[١] أي: كلامه السابق.

[٢] وهي التي يقطع معها مجرَى الهواء الخارج تماماً في موضع تكوّن الصوت، ثمّ يفرج عنْه مباشرة، فيخرج بشدّة محدثاً الصوت الشديد.

[٣] وهي التي يضيق على مجرى الهواء معها في موضع تكوّن الصوت، أي: يُترَك له منفذ يخرج منه، مع اختلاف بين الأصوات في شكل هذا المنفذ، وحجمه.

[٤] الكتاب: ٤/ ٤٣٤.

وجد الفَرْق السمعي بين الحروف الرخوة والحروف الشديدة في أنّ الرخوة يمكن مدّها، والشديدة يتعسّر مدّها، ولاشك أن له الحق في ذلك[١].

- **[الضاد]:**

إلاّ أنه عدَّ من الرخوة حرفاً خرج منها بعده في كثير من اللهجات العربيّة، وهو الضاد، فإنّها ليست الآن من الرخوة، إلاّ في لفظ من قال: ضَرَبَ – مثلاً– بضاد جانبية المخرج [٢].

---

[١] أيد الدرس الصوتي الحديث سِيبَوَيه في هذا الفرق السمعي بين الرخوة والشديدة فالأصوات الرخوة تتّسم بصفة الاستمرار النطقي لذا يمكن مدّها والتغني بها ما دام تيار النفس مستمراً، أما الشديدة فتتسّم بالآنية والانتهاء مباشرة بعد إزالة العارض، ولهذا لا يمكن ترديدها.

[٢] تحديد سِيبَوَيه لهذا الصوت صحيح مخرجاً وصفة، لأنه وصف صوتاً ينطق في عهده، فمخرجه ممّا يلي وسَط الحنك مع التصاق اللسان بأخذ جانبي الفم، صوت ليس له شريك في المخرج، وفيه قال سِيبَوَيه: "ليس في موضعها شيء آخر". وكذا قال ابن جنّي: إنَّ شئت تكلفتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر، والقولان يثبتان أنها ليست لثوية، هذا المخرج يقود إلى صفة الرخاوة التي ذكرها سِيبَوَيه؛ لأَنَّ هواء الصوت يستمر في الخروج من جانب الفم على الرغم من وجود العارض (الناتج من التصاق اللسان بالأضراس الجانبية) ولهذا المخرج المتفرد وصفة الرخاوة اعتاص نُطق الضاد وعَسُر على اللسان، وقَلّ مَن أحسن نطقه فَمِنْهم مَن أخرجه ظاء، ومِنْهم مَن أخرجه دالاً مفخمة، ومنهم مَنْ أخرجه لاما مفخّمة ومنهم مَنْ أخرجه ذالا، ولهذا أفردوا هذا الصوت برسائل خاصة منذ القرن الرابع الهجري، ومِنْ هنا سُميّت العربيّة بلغة الضاد، وهي إشارة إلى تفرّد اللغة العربيّة بهذا الصوت إذا أُحْسِن نطقه، وأُدّي الأداء الفصيح.

وأما في النطق المعتاد في مصر يعني بضاد مقدّمة المخرج. فقد لحقت فيه الشدّة [١].

- **[الجيم]:**

وهناك حرف –أيضاً– هو شديد في لفظ المصريين[٢]، كما أنه كان شديداً في لفظ سِيبَوَيه وهو (الجيم)، وأما في اللفظ المعتبر فصيحاً عند المتعلمين في عصرنا، فالجيم فيه: شديدة في أوّلها، ورخوة في آخرها [٣].

---

[١] لأنّه ينطق دالاً مفخمة، أمّا في العراق وبلدان أخرى فينطق نطقاً أشبه بِـــ(الظاء) فالرخاوة – إذاً – باقية.

[٢] وهو صوت ينطق في مصر كنطق الصوت الانجليزي (g) في مثل كلمة (good) أي: إنَّ مخرجه تراجع إلى الخلف، فهو ما بين الكاف والقاف، فحافظ على شدّته على الرغم من التغيير الذي نال منه.

[٣] يريد أن من صفة النطق المعاصر لصوت الجيم هو كونه مركّباً، أي هو شديد – رخو (انفجاري – احتكاكي) بمعنى أنه بعد إقامة العارض وهو العائق لِمَجْرى هواء النفس تماماً – الناتج من التقاء وسط اللسان بِوَسط الحنك الأعلى – لم تكن هناك إزالة مباشرة لهذا العائق بلْ يتمّ انفصال اللسان عن الحنك الأعلى ببطء، وهذا النوع من الانفصال يسمح لهواء الاحتكاك بالجانبين (اللسان، وسقف الفم)، لذا شكّل هذا النطق حالة فريدة، لأَنَّ الغلق التام يعني الشدة، والانفصال غير المفاجئ وخروج الهواء بقدرٍ ما يعني الرخاوة، وهذا الوصف المعاصر يقترب كثيراً من وصف الجيم الشامية المشربة بصوت الشين، وأمامنا أمران: **أولهما**: وَصْف سِيبَوَيه له بالشدة. **وثانيهما**: وَصْف المحدثين له بالتركيب من الشدّة والرخاوة، وإذا كان سِيبَوَيه قَدْ نظر إلى المرحلة الأولى من نطق الصوت –وهي حالة الغلق التام أسوة بالأصوات الشديدة الأخرى، وعدم العناية بالمرحلة=

- **[المتوسطة بين الرّخوة والشديدة]:**

وأصاب سِيبَوَيه – أيضاً – في أنه هناك حروف هي شديدة من جهة، ورخوة من جهة أخرى [1].

---

=الثانية– وهي الانفصال غير المفاجئ – فقد أصاب، ووصفه صحيح، أو أنه وَصَف لنا صوتاً ينطق في عهده بصفة الشدة، وقد جاء في آثار سِيبَوَيه والقدماء صوت (بين القاف والكاف والجيم) وهو شديد لا محالة. ينظر: (علم اللغة العام الدكتور كمال بشر: ١٢٥).

[1] اصطلح عليها سِيبَوَيه (بين الرخوة والشديدة) بمعنى أنها لا تتصف بصفة الأصوات الشديدة وهي الغلق التام لطريق الهواء، ولا بصفة الأصوات الرخوة وهي تَرْك منفذ لخروج الهواء. فالعين – مثلاً – لا هي تتصف بقطع الهواء كما هي الحال مع الهمزة، ولا بسهولة خروج الهواء كما هي الحال مع الحاء، فهي حالةُ وسْطى بينهما أيْ يمكن أن يجري هواء النفس حال النطق بها، ولكن ليس كجريانه مع الحاء، ولهذا قال المحاضر فيما بعد: إن العارض ليس بمتصل بلْ هو متفتّر، ولمْ يخلُ صوت العين من خلاف، فأغلب الدراسات الصوتية الحديثة عدّت صوت العين ضمن الأصوات الرخوة، غير أنّ المستشرق الالماني برجشتراسر يرىَ أنّ العين تتميّز بنطق متنوع، فقد تكون أحياناً شديدة، وأحياناً رخوة وعند التدقيق، فهي إنما تمثّل حالة وسطى بين الأصوات الرخوة المجهورة وبين سائر الأصوات (أي الشديدة والرخوة المهموسة)، وتابعه د. أنيس فقال: (ضَعْفُ حفيفها يقرّبها من النون والميم والراء، وقال د. كمال بشر: إنها أقلّ الأصوات الاحتكاكية احتكاكاً... وقلّة الاحتكاك مسوّغ ظاهر لضمّها إلى هذه الأصوات المتوسطة، وفي أقوال هؤلاء تأييد لتصنيف سِيبَوَيه في ذلك الزمن الموغل في القِدَم. ينظر: (التطور النحوي للغة العربيّة، ١٥، والأصوات اللغوية، ٨٨، وعلم اللغة العام، ١٥٦.

وعدَّ هذا النوع من المشترك: العين، واللام، والنون، والميم[١]، والراء، وقدْ ذكرْنا أنّ النون والميم لهما مخرج من الأنف يخرج منه تيّار النفس، مع أن طريقه من الفم مقطوع باللسان، أو الشفتين، وأما الرّاء[٢]، والعين فهما من هذا النوع، لأَنَّ العارض فيهما ليس بمتصل بلْ هو متفتّر، وأَمّا اللاّم فإنّ طرف اللسان يلزم فيها اللثّة، ولكنّ النفس يخرج من جانبي اللسان[٣]، ويصحّ نفس ذلك في الضاد[٤]، حسب اللفظ القديم، وإن كان سِيبَوَيه لمْ يذكرها هنا.

***

---

[١] فالنون والميم يتّسمان بوجود العارض كما يحدث مع الأصوات الشديدة، غير أن الهواء يجد له طريقاً من الأنف، فيخرج في الوقت الذي يكون العارض فيه قائماً، فهي حالة لا تشبه الشديدة ولا الرخوة، وفيهما قال سِيبَوَيه: (حرف شديد يجري فيه الصوت)... علماً أن الشديد الخالص لا يجري معه هواء النفس.

[٢] للراء حالة متفردة أيضاً، وهي تكرار إقامة العارض وإزالته نتيجة تكرار ضربات اللسان على اللثة، ولولا هذا التردّد على اللثة؛ لضاعت معالم صوت الراء، فلا هو بالشديد، ولا هو بالرخو، وقال فيه سِيبَوَيه: "هو حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره".

[٣] مع صوت اللام يبقى العارض قائماً، مع خروج الهواء في الوقت نفسه من جانبي اللسان، وهي حالة لا تشبه نطق الشديدة ولا الرخوة وفيه قال سِيبَوَيه: "ولم يعترض على الصوت كاعْتراض الحروف الشديدة... وليس كالرخوة".

[٤] تشترك اللام والضاد بالجانبية، فمع اللام يخرج الهواء من جانبي اللسان، ومع الضاد ينحرف اللسان إلى أحد جانبي الفم على وفق النطق القديم.

هذا أهم ما أردت أن اقوله في الحروف الرخوة، والحروف الشديدة، ويجب علينا بعد ذلك أن ننظر إلى الحروف المجهورة والمهموسة.

***

**[المجهورة والمهموسة]** [1]:

يقول سِيبَوَيه عن هذين النوعين من الحروف: "فأما المجهورة: فالهمزة، والألف، والعين، والغين، والقاف، والجيم،

---

[1] الجهر والهمس – على وفق الدرس الحديث – تصنيف صوتي مبني على حالة اهتزاز الوترين الصوتيين، أو عدمها حال النطق بصوت ما، فالمجهور هو الصوت الذي يهتز معه الوتران الصوتيان، أما المهموس فهو ما لا يهتز معه الوتران الصوتيان، وشيء طبيعي ألاّ يعرف سِيبَوَيه الوترين الصوتيين في ذلك الزمن الموغل في القدم، ولكن من المعلوم أن حركتي الوترين هو حدث صوتي داخل الحنجرة، وفي أكبر الظن أن سِيبَوَيه أحسّ بهذا الحدث فنسبه إلى الصدر، ففي حديثه عن بعض الأصوات المجهورة قال: "هذه الحروف إذا خرجت بصوت الصدر "... أما عن المهموسة، فقال: "لأنهن يخرجن مع التنفس بلا صوت الصدر"، (٢/ ١٧٤– ١٧٥)، وصرّح السيرافي شارح الكتاب فقال: "وإنما الفرق بين المجهور والمهموس أنك لا تصل إلى تبيين المجهور إلاّ أن يدخله الصوت الذي يخرج من الصدر، فالمجهورة كلّها هكذا يخرج صوتهن من الصدر..." (شرح كتاب سِيبَوَيه ٦/ ٤٦٢)، وعلى العموم فمَعَ عدم ذِكْر سِيبَوَيه للأوتار الصوتية لكنه صنّف الأصوات على وفق الجهر والهمس بشكل كاد يطابق ما توصّلت إليه الدراسة المعملية الحديثة، وهنا المفخرة الكبرى.

والياء، والضاد، واللام، والنون، والراء، والطاء، والدال، والزاي، والظاء، والذال، والباء، والميم، والواو، فذلك تسعة عشر حرفاً[١]، وأما المهموسة: فالهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والصاد، والثاء، والفاء، فذلك عشرة أحرف، فالمجهور: حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أنْ يجري حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت، وأمّا المهموس فحرف أضعف الاعتماد[٢]، في موضعه...، حتى جرى النفس معه[٣]،

---

[١] تعيين سِيبَوَيه للمجهورة جاء على وفق نطقهم في ذلك الزمن، أما على وفق النطق المعاصر فقد أخرجت الأصوات: (الهمزة، والقاف، والطاء) من هذه المجموعة.

[٢] إشباع الاعتماد في الموضع وضعفه عبارتان يلفهما الغموض، لذا انقسم من جاء بعده بين مُرَدّد، أو شارح لألفاظه، ومعلن أنّ المجهور يمتاز بالوضوح والقوة على خلاف المهموس ذي الاعتماد الضعيف، وقدْ تفرّد اللغوي الجزائري الأخ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح بتفسير قوة الاعتماد وتأييد وجوده في المجهور من دون المهموس، فبعد أن نقل ايضاح أبي الحسن علي بن عيسى الرماني (٣٨٨هـ)، وهو أن (قوة الاعتماد كقوة النقر) قال الدكتور: "فهذا النقر حاصل لا محالة بفضل تمدّد الجلدة المخاطية في موضع الحرف، وقد قسنا ذلك بآلة خاصة وبينا أن التوتر زائد في المجهور من دون المهموس. ينظر: بحثه تكنولوجيا اللغة والتراث العربي اللغوي الأصيل، نسخة في مكتبتي مهداة منه.

[٣] منع النفس وجريه صفتان مبنيتان – في أكبر الظن – على تقارب الوترين الصوتيين في الحنجرة، وتباعدهما فإذا تقاربا مع المجهور ليهتزا من أجل أنْ يتم الجهر، فهما يكادان يسدّان مجرى الهواء، وهذا هو منع النفس، وإنْ ابتعدا مع المهموس وتراجعا، فالنفس جار.

وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فَردّدت الحرف[١]، مع جري النفس، ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر[٢] عليه"[٣] هذا هو وَصْف سِيبَوَيه للحروف المجهورة والمهموسة، ومَنْ قرأه فربّما يظن أنّ الفَرْق بين النوعين يتوقّف على كون الاعتماد في المجهورة أقوى منه في المهموسة، يعني أن الناطق بـــ(الدال والزاي – مثلاً – يضع طرف لسانه على اللّثة بِقوّة تفوق القوة العاملة في النطق بالتاء أو السين، وليس من المستحيل أن ذلك كان بالفعل رأي سِيبَوَيه[٤]، لكن موضوع الشك هو عندنا: أيصحّ ذلك الرأي ؟ ويجب عليَّ أن أصرّح بكل الصراحة أني ما أظن أنه يصحُّ، فإن

---

[١] يريد الحرف المهموس.

[٢] فمقياس التمييز عند سِيبَوَيه، هو جري النفس، واستمرار خروجه مع إخفاء الصوت، فإنْ أمكن ذلك فهو المهموس، وإلاّ فالمجهور، فيجوز ترديد السين مع إخفاء صوتها مِن دون أنْ تضييع معالم الصوت، تقول: سسسسس وككككككك، ولا يمكن هذه الترديد مع الدال مثلاً، لأنَّها تتحوّل مع الإخفاء إلى (تاء) وتتحول القاف مع الترديد إلى كاف، أو خاء، هذا بالإضافة إلى أن سِيبَوَيه ميّز بينهما في غير هذا الموضع، وهو الأمر الذي يقرّبه من تمييز المحدثين، ومفاده أنّ المجهورة تخرج مع صوت الصدر، بخلاف المهموسة التي لا يرافقها صوت الصدر، ورجّحنا في مثل هذا أن صوت الصدر هو الحدث الصوتي داخل الحنجرة نتيجة حركة الوترين الصوتيين.

[٣] الكتاب: ٤/ ٤٣٤.

[٤] هذا تفسير بعيد، لم يقصده سِيبَوَيه، ولم يُقل به أحد من علماء العربيّة.

مراقبة اللهجات العربيّة الحديثة لا تدلنا على قُوّة خصوصيّة في لفظ الدال والزاي – مثلاً – حين نقابلهما بالتاء والسين، إلاّ في لهجة واحدة فقط سنذكرها فيما بعد.

ويلزمنا – من الآن – أن نقول:

إنَّ تقوية اللفظ منحصرة هناك –أيضاً– على أحوال مخصوصة سيتلو بيانها، ولكنْ قبل أن نخوض في دراسة تلك الخاصية، يجب أن نوجّه النظر إلى موضع غير الذي سردْناه من كتاب سِيبَوَيه، وذلك في (باب الساكن الذي يكون قبل آخر الحروف، فيحرّك لكراهيتهم التقاء الساكنين)[١]، يقول هناك: "وأعلم أن من الحروف حروفاً مشربة[٢]، ضُغِطت من مواضعها[٣]، فإذا وقفْتَ خرجَ معها من الفم صُوَيْتٌ، ونبا اللسان عن موضعه، وهي حروف القلقلة [٤]... وذلك: القاف، والجيم، والطاء، والدال، والباء، والدليل على ذلك أنك تقول: الحِذْق، فلا

---

[١] الكتاب: ٤/ ١٧٣.

[٢] يريد اصواتاً الحقت بِصُوَيت، ولم يشمل هذا الإلحاق المجهور كلّها، بل بأصوات محددّة سيذكرها.

[٣] يريد بالضغط هنا (نطق الصُوَيت اللاحق) لأصوات القلقلة، وليس شيئاً آخر يريد المحاضر أن يصل إليه.

[٤] القلقلة: تصنيف لمجموعة صوتية تميّزت بحالة خاصة في أثناء الوقف عليها، وهي أن يتبعها صُوَيت من أجل تحقيق معالم أصواتها، وبيان خواصّها الأساسية.

تستطيع أن تقف إلاّ مع الصويت[١]، لِشدّة ضغط الحرف[٢]، وبعض العرب أشد صوتاً، كأنّهم الذين يرومون الحَركَة" [٣].

***

ومن المُشْربة حروفٌ إذا وقفت عندها خرج معها نحو النَّفْخةَ، ولم تُضْغَط ضغْط الأولى، وهي: الزاي، والظاء، والذال، والضاد،... وذلك قولك: هذا نَشُز، وهذا خفض، وأما الحروف المهموسة فكلّها تقف عندها مع نَفْخ؛ لأنّهن يخرجن مع التنفس لا صوت الصدر[٤]..." الخ.

---

[١] مع الصُويت اللاحق بها.

[٢] شدّة الضغط متأتيّة من كون هذه الأصوات الخمسة عندهم شديدة ومجهورة، فلما يُوقف عليها، وهي قوافٍ للكلمات، والوقْفُ موضع راحة وسكون، وكذا ضَعْف الدفعة الهوائية الخارجة، فخافوا على ضياع الجهر أو الشدّة، وهما من أبرز معالم هذه الأصوات، فالجهر يتطلّب امتداداً صوتياً لإظهاره، والوقْف خلاف حالته، وكذا الوقف يقلّل من صفة الشدّة فَمِن أجل الإبقاء على هاتين الصفتين معاً أُتبع المجهور الشديد – حال الوقف – بصُويت، وكأنّه بمثابة الحركة، ليبقَى مجهوراً شديداً، فَشدّة الضغط التي عناها سِيبَوَيه – في الرأي الراجح – سببها إعطاء الصوت حقّه في النطق مع إلحاقه بالصُويت، وليس كما يريد المحاضر (أ. شاده) إثباته من أنه يقصد وَضْعْ اللسان على اللثة –مثلاً– مع الصوت المجهور بقوة أشدّ من وضعه حالة النطق بالصوت المهموس.

[٣] يريد على مستوى اللهجات، فهناك من يزيد في هذه الشدّة، فعندما ينطق أحدهم بهذا الصُويت اللاحق، فكأنه يريد النطق بِحركَة.

[٤] قسّم سِيبَوَيه الأصوات حالة الوقف على أقسام (٤/ ١٧٤): =

هذه أهمّ ما يقوله سِيبَوَيه في لفظ الحروف المجهورة والمهموسة في الوقف بعد حرف ساكن.

فالسؤال: ما هو ذلك (الصُويت) الذي يزعم سِيبَوَيه أنه لاحظه عند الوقْف على المجهورة الشديدة؟

اعترف أني أتردد في الجواب عن هذا السؤال بين مذهبين:

**أحدهما**: أنْ نُفسّر (الصويت) المذكور، بِحَدَث نُطقي لمْ يوفق سِيبَوَيه إلى ملاحظته، إلاّ في الوقف على المجهورة الشديدة، وهذا الحدَث هو اهتزاز الأوتار الصوتية، ولا يخفى عليكم أنه بالفعل مميّز الدال –مثلاً– عن التاء، ومميز الزاي عن السين، هذا التفسير هو الذي قدْ ذهبتُ إليه لمّا ألّفت كتابي في عِلْم الأصوات عند سِيبَوَيه، وقدْ مرّت على ذلك عشرون سنة[1]، ولكنّه فيه نظر:

---

=**أولهما**: مجهورة يتبعها صُويت نتيجة الضغط عليها، وهي أصوات القلقلة التي جمعت الشدّة إلى الجهر – على وفق نطقهم القديم – وقد مرّ ذكرها.

**وثانيهما**: مجهورة يتبعها نفخ؛ لأنّها لم تكن شديدة، بلْ جمعت الرخاوة إلى الجهر، وهي الزاي، والظاء، والذال، والضاد، والراء.

**وثالثها**: مجهورة لا يتبعها شيء، وهي أصوات جمعت إلى الجهر صفات مختلفة: كاللام، والنون، والميم، والعين.

**ورابعها**: مهموسة ويتبعها نفْخ، لخروج هواء النفس بحريّة من الحنجرة.

[1] صدر علم الأصوات عند سِيبَوَيه الكتاب: عام ١٩١١ في ليدن، وهو كما وصفه كانيتنو بأنه تلخيص لأهم ما جاء في كتاب امام النحو العربي من معلومات صوتية، أما مادة هذه الرسالة فقد ألقاها بالجامعة المصرية عام ١٩٣١.

فإنّ اهتزاز الأوتار الصوتية، أو بالأحرَى نتيجته السّمعية لا تسهلُ ملاحظتها في أيّ كُتلة من المجهورة سهولة تساوي سهولتها في المجهورة الرخوة، وسوف تشعرون بذلك إذا قابلتم – مثلاً – بين كلمتي (الفَرْد) و (الرَّمز)، فإنكم تسمعون الزاي تخرج بطنين يُشْبه طنين[١] النحل، وأما الدال فيساوي طنينها طنين الذباب على الأكثر، ومع ذلك يُنكر سِيبَوَيه وجود الصُّوَيت في أمثال (الرَّمْز)، ويثبته في أشباه (الفرد)[٢].

أفيجب أن نعتقد أن سِيبَوَيه فاتته ملاحظة المكشوف ووُفِّق إلى ملاحظة المستور؟

أظنّ ذلك بعيد الاحتمال، وإنْ لَمْ يكنْ مستحيلاً. فلذلك أميل –الآن– إلى أَنْ أرجّح تفسيراً آخَرَ دلّنا عليه مراقبة رجل صنعاني كان معنا في هامبورج[٣]، فإنّ هذا الرجل حين يقف على (دال) أو (باء) أو غيرها من المجهورة الشديدة كان يطرد أو يدفع طرف لسانه على لَثّته بقوة تُشبه الانفجار، كان يظهر ذلك –مثلاً– في قوله: عادْ، أو: كلابْ[٤]، ولم يكن يفعل ذلك إذا وقف على

---

[١] يريد صوت النحل.

[٢] اثبت سِيبَوَيه هذا الصوت في الدال وأخواتها من أصوات القلقلة، لإحساسه بصِفةٍ، وحالة نطقية تميّزت بها هذه المجموعة من دون الأصوات المجهورة الأخرى.

[٣] مدينة ألمانية.

[٤] هذا كما يبدو نطق خاص لذلك الرجل الصنعاني، وليس تمثيلاً للهجة صنعاء، فَلَمْ ألحظه طيلة إقامتي فيها، ولم يلحظْه دارسو أصوات لهجة صنعاء أمثال أ. روسي ١٩٣٩، أو ياسترو أو بينشت ١٩٨٧، أو د. عبد الغفار هلال ١٩٧٧.

(الزاي)، وسائر المجهورة الرخوة[١]، فأظن -الآن- أنّ سِيبَوَيه كان قد لاحظ مثل ذلك في كلام عصره، وأنّ تلك الشدّة في إزالة العارض التي نشاهدها الآن عند أهل صنعاء عند الوقْف على الحروف المجهورة الشديدة هي (الصُويت) الذي ذكر سِيبَوَيه أنه مخصوص بهذه الحروف في الوقف[٢]، ومن المحتمل أن ملاحظة هذا الصويت الذي رأى سِيبَوَيه سببه في شدّة الضغط حمله على أن يصف المجهورة في كل حال – ليس في الوقف فقط – بإشباع الاعتماد[٣]، في موضعها، ومنع النفس معها[٤]، ويسوءني هذا

---

[١] شيء طبيعي ألا يحدث مع المجهورة الرخوة، لأَنَّ الهواء مستمر الخروج معها، وإنْ ضاق منفذه.

[٢] هذا افتراض بعيد عن التدقيق؛ لِعَدَم كون ذلك النطق صفة عامة للهجة، أما الصُويت الذي لاحظه سِيبَوَيه، فهو نظير ما نسمعه الآن من قارئي القُرآنِ الكريم عند إلحاقهم أصوات القلقلة (ق، ط، ب، ج، د) حال الوقف بصويت زائد صغير، وهذه الزيادة تكون بمثابة الحركة اللاحقة للحرف.

[٣] إشباع الاعتماد عند سِيبَوَيه هو صفة للصوت المجهور، تتجسّد في وضوحه، وقوة إسماعه؛ نتيجة الكيفية العامة لوضع أعضاء جهاز النطق معه، والذي يسبّب ارتفاع الصوت الذي يعني الجهر، أما دلالة تعبير (إشباع الاعتماد) فمختلف فيها: ما بين الضغط على موضع خروج الصوت، أو الضغط على النفس في موضع خروج الصوت، والثاني أولى وأقرب.

[٤] منع النفس يحدث بسبب تقارب الوترين الصوتيين، لاهتزازهما في حالة الجهر.

الكشف[١]، لأنّه يسلب سِيبَوَيه مفخرة، كنت أؤمّل أن يمكننا عَزْوها إليه، فإنّ سِيبَوَيه لَوْ صحّ أنه عثر على الصوت الصادر من الأوتار الصوتية في حال واحدة، لجاز أن نقول: إنَّه – وإن كان لم يُدرك ماهيّة المجهورة –حقّ الإدراك– قد اقترب من فَهْمها[٢]، وهذا كثير في عصره، وأمّا إذا كانت الحال كما نظنّ فيلزمنا أن نقول: شعر سِيبَوَيه أو أحسّ بأنّ الحروف المجهورة لها مُميّز يعمّها، وللمهموسة مُميّز آخرَ يعمّها، ولكنه لم يلمُّ بحقيقة الأمر[٣]، فإنّه يصعب علينا الشَّك في أن المجهورة هي الحروف التي يسمّيها اصحاب عِلْم الأصوات من الأوربيين في عصرنا ( Consonants Voiced) أو (Consonants Sonores).

---

[١] الكشف غير صحيح، لاعتماده على مقدّمات غير صحيحة.

[٢] نعم: هو اقترب من فهمها، بدليل صحة تقسيمه للأصوات إلى مجهورة وإلى مهموسة من دون معرفته بالأوتار الصوتية الذي يحدث اهتزازها صفة الجهر، فالجهل بالسبب لا يستتبع مطلقاً عدم إدراك الأثر الناتج عن ذلك السبب، ثم أَنّ سِيبَوَيه أحسّ بما أسماه (صوت الصدر) ورجّحْنا كونه الحدث الصوتي داخل الحنجرة، وهو اهتزاز الأوتار الصوتية.

[٣] ما نريده من دارس في ذلك الزمن الموغل في القدم هو أَنْ يقدّم دراسة جديرة بالاحترام، ولا تعنينا المقاييس، والأسس التي أتبعها، وقد فعل سِيبَوَيه ذلك، وكان مفخرة كما يقول شاده نفسه في نهاية محاضرته.

وأمّا المهموسة فهي المسماة عندنا(voiceless consonants) أو (consonannes sourdes)[١].

ومعنى ذلك أنّ المجهورة تمتاز عن المهموسة بشدّ الأوتار الصوتية، أو مطّها حتى يستطيع النفس من إطنانها [٢]، وإما المهموسة فَتَرَخَى الأَوتار في لفظها، فلا تطنّ مع ما يجوز من بينها من النفس [٣]، ولا يدهشنا أن سيبويه لَمْ يدرك هذه الحال حقّ الإدراك؛ لأنّه – كما قدْ ذكرْنا – كان يجهل الحنجرة، وأقسامها. ولكَن ليست مطابقة المجهورة لما نسميه (voiced consonants) بمؤكدة ما دامت الحجج التي قد يُحتج بها على تلك المطابقة لم تُنقض [٤].

منها: إنَّ سِيبَوَيه يعدّ من المجهورة (الطاء والقاف)، وفي لفظ عصرنا لا نصيب للأوتار الصوتية في إنتاجهما.

---

[١] دروس في علم أصوات العربيّة، لكانتينو، ٣٤ وفيه إشارة إلى بعض الباحثين الذين قاموا برفض تفسير (سُنُور – sonores) بالمجهور، وتفسير (سوُردْ – sourdes) بالمهموس بِحُجّة أَنّ علماء الأصوات العرب – يجهلون الأوتار الصوتية، وكذا بِحُجّة الاختلاف الحالي في جهر بعض الأصوات وهمسها، وقد تكفّل كانتينو بالرّد عليهم، معتمداً على (W. H. T Gairdner, the phonetics of arabic) (Oxford, 1925).

[٢] أي: تحريكها، وجعلها ذات صوت.

[٣] أي: ليس لهما صوت، لانسحابهما وتباعدهما عن مجرى هواء النفس.

[٤] يراجع نقض كانتينو لها (دروس في علم أصوات العربيّة: ٣٥).

ولكن ذلك لا يصح إلاّ عن لفظ المدارس[١]، وأما اللهجات فتخالفها مخالفة شديدة، فإنّ سكان جنوب جزيرة العرب – مثلاً – يلفظون (الطاء) كأنها ضاد المصريين، و(القاف) كأنّها جيم المصريين بإطباق، فيقولون –مثلاً–: wiga Faugana madar، يعني: وقع فوقنا (علينا) مَطَر. أو gadat waraga: قطعت ورقة.

ومثل ذلك يصحّ عن غير لهجة جنوب جزيرة العرب من اللهجات العصرية، وزد على ذلك أنّ سِيبَوَيه نفسه يقول: "لولا الاطباق لصارت الطاء دالاً"[٢]، ولاشك في كون الدال تستحق اسْم المجهورة في كلّ معنَى، فلا قوة للحجّة المؤسّسة على لفظ (الطاء، والقاف)[٣].

---

[١] يقصد: العربيّة الفصحى.

[٢] بمعنى ان صوت الطاء يتميز بصفة الإطباق والجهر، فَلَوْ ذهب الإطباق منه، لَبقِي الجهر، ولصار الصوت دالاً؛ لأَنَّ الدال مجهورة من مخرج الطاء، فسيبويه هنا حاول ايضاح الأمر عن طريق التقابل بين صفات الأصوات.

[٣] أي: نقض المحاضر حُجّة كون الطاء والقاف – الآن – مهموسين، في حين عدّهما سِيبَوَيه مجهورين، بدليل نطقهما مجهورين في بعض اللهجات المعاصرة التي هي امتداد اللهجات العربيّة القديمة، وهذا ترجيح على أَنّ القدماء وصفوا صوتين مجهورين في عهدهما، وأيّده في هذا: برجشتراسر في كتابه التطور النحوي للغة العربيّة: ١٦، وكانتينو في كتابه دروس في علم أصوات العربيّة: ٣٥، وأغلب الباحثين العرب.

ولكن سِيبَوَيه عَدَّ من المجهورة الهمزة أيضاً، ولاشك في أنها ليست من الحروف التي نسمّيها (voiced consonants)[١]، لأَنَّ الهمز هو إغلاق المزمار[٢]، ومن البديهي أَنَّ مزماراً مغلقاً لا صوت له[٣]، وإذا كان سِيبَوَيه قد عدّ الهمزة من الحروف المجهورة، فسبب هذا الوهم غالباً أَنَّه لَمْ يوفق إلى تجريد[٤]، الهمزة أبداً، بل لاحظها دائماً مشكولة، أو بعد حركة، حتى عزا جهارة هذه الحركة للهمزة نفسها [٥].

---

[١] أي: ليست من المجهورة.

[٢] أي: إغلاق المزمار إغلاقاً تاماً، ليتمكن الوتران من انتاج صوت الهمز، ولذا تسمّى الهمزة بالوقفة الحنجرية، والمزمار: هو الفراغ الكائن بين الوترين الصوتيين.

[٣] يريد أن انطباق الوترين بصورة تامة ثم انفتاحهما، لِتَحْدث الهمزة، وهي حركة واحدة، لا تذبذب معها إذاً: لا جهر مع الانطباق التام، فالهمزة مهموسة على رأي المحاضر، وتابعه الدكتور تمام حسان في مناهج البحث، ٩٧، واللغوي الأمريكي هفنر في كتابه: ( General phonetics, 1960).

[٤] يريد، تجريدها من الحركة اللاحقة لها.

[٥] ليس الأمر كما وصف المحاضر، بلْ إنها مجهورة على وفق معيار سِيبَوَيه الذي وضعه للمجهور، لأَنَّ النفس – حال النطق بها – لا يجري، بسبب اغلاق الوترين الصوتيين، ولا دخل للحركة في حُكْم سِيبَوَيه على الهمزة، ونظراً لكون الوترين هما الضابطان في الحُكْم على المجهور وعلى المهموس في الدراسات الحديثة؛ ولأن الهمزة تنشأ داخل هذين الوترين، فقد اختلف المحدثون فيما بينهم في جهرها وهمسها، فمنهم مَن=

هذا ما أمكننا إيراده لبيان معنى المجهورة والمهموسة.

***

**٣- [المطبقة والمنفتحة][١]:**

فيجوز أنْ نوجّه دقتنا إلى تقسيم آخر، وهو تقسيم الحروف إلى: مُطبقَة و مُنفتحة.

أمّا الإطباق: فهو نُطق خصوصي يعزوه سِيبَوَيه لأربعة حروف، وهي (الصاد، والضاد، والطاء، والظاء)، ويقول عنها في (باب عدد الحروف في العربيّة): "وهذه الحروف الأربعة إذا

---

=اتبع القدماء وقال بالجهر، ومِنهم مَنْ قال بهمسها؛ بحجّة عدم تذبذب الوترين، ومِنهم مَن قال: إنها لا مجهورة ولا مهموسة، لكون حالتها فريدة، لا تشبه الحالتين، نظير الدكتور ابراهيم أنيس، والدكتور كمال بشر، وديفيد ابروكرومبي في كتابه (مبادئ علم الأصوات العام، ٨٣)، فإذا كان هذا أمر المحدثين مع ما أُوتوا من وسائل صوتية حديثة، فماذا نقول عن سِيبَوَيه في ذلك العصر المتقدم الذي اعتمد فيه على التذوق الشخصي، والملاحظة الذاتية.

[١] الإطباق والانفتاح تصنيف صوتي مبني على حالة ارتفاع مؤخّر اللسان إلى الأعلى مع تراجع إلى الخلف، فضلاً عن ارتفاع أوّله؛ ليشكل مخارج الصوت، فارتفاع أوّله وآخره يجعل شكل اللسان مقعّراً، ليكون كالطبق على سقف الفم، وهذا يعطي الصوت رنيناً مفخماً له، فهذه حال المطبقة، أما إذا لم يرتفع آخرُهُ، فذلك مع الأصوات المنفتحة، وهي التي تتميّز بِجرَس صوتي مرقّق، فما نسمعه من الطاء صوت غليظ، في حين نسمع من التاء صوتاً رقيقاً.

وضعت لسانك في مواضعهن، انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذَى الحَنَك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحرف... فهذه الأربعة لها موضعان [١]، من اللسان... "[٢].

هذا التعريف من الوضوح بحيث يستغني عن التفسير، وما أصوب قَوْل سِيبَوَيه: "إنَّ هذه الأربعة لها موضعان من اللسان". فإنّ الناطق بالصاد – مثلاً – لا يكتفي بوضع طرف لسانه على لثّته [٣]، كما يفعل في السين، ولكنّه – في الوقت نفسه – [٤] يقرّب الجزء الأخير من لسانه [٥] إلى ما يحاذيه من الحنك [٦]، وإنْ كان لا يمسّه [٧]، ومِنَ الممكن أنّه كان للحنجرة في بعض الأزمنة، أو

---

[١] أولهما ليشكل مخرج الصوت، وثانيهما – أقصى اللسان – ليكون شكل الطبق على الحنك الأعلى، والثاني هو العامل القوي في إيجاد التفخيم حال تمام وضع الاطباق. وهنا لابُدَّ من التمييز بين الاطباق والتفخيم، فالأول – وهو الاطباق – وصف لكيفية شكل اللسان المقعّر المطبق على سقف الفم. أمّا الثاني – وهو التفخيم – فهو أثرٌ سمعي ناشِئ عن الإطباق.

[٢] الكتاب: ٤/ ٤٣٦.

[٣] وهي مخرج الصوت.

[٤] في الأصل (في نفس الوقت) وفقد غيرنا أمثالها في المواضع القادمة أيضاً.

[٥] أي: أقصى اللسان.

[٦] الحنك الأعلى، أي نهاية سقف الفم.

[٧] أي لا ينطبق اللسان على سقف الفم.

يكون في بعض اللهجات نصيب في اخراج الحروف المطبقة [١]، كما زعم غير واحد من المستشرقين[٢].

ولكن ليس بثابت أنّ ذلك يصحّ عن الكلام الذي راقبه سِيبَوَيه، فليس في سكوته عَنْه سبب للانتقاد، وأما أصحاب عِلْم الأصوات من الغربيين، فلَمْ يباشروا دراسة المطبقة إلاّ في حديث الزمان، ولا غَرو[٣]، لذلك، لأَنَّ هذه الحروف[٤] لا توجد في لغاتهم.

فمآل دراستنا لأصول تقسيم الحروف عند سِيبَوَيه أنّه قسّمها ثلاثة تقسيمات:

---

[١] أي إن مخارج (الصاد، والضاد، والطاء، والظاء)؟ في مكان أدخل مما ينطق الآن.

[٢] قياساً – في أغلب الظن – على اللهجات الحبشية التي تلحق صوت الهمز بالأصوات المطبقة، أي: إنه قبل اخراج الصوت من مخرجه يغلق فمُ الحنجرة تماماً ثم ينطق بالصوت، ثمّ يفتح فمُ الحنجرة، فيصدر ذلك الصوت الزائد الشبيه بالهمز، فافْتَرَض بعض المستشرقين أَنّ هذا هو النطق الأصلي، أو القريب من الأصلي، وأنّ النطق العربي مشتق منه (التطور النحوي برجشتراسر: ٢٦)، وممّا هو جدير بالذكر أن بعض التجارب الصوتية تقف إلى جنب هذا الرأي فقد ذكر الدكتور سلمان العاني أن الفحص الفيزيائي والتشريحي أثبت أن منطقة الحلق تشارك منطقة أقصى الفم في إحداث الأصوات المطبقة (ينظر: كتاب التشكيل الصوتي: ٧١).

[٣] أي: لا عجب.

[٤] أي: أصوات الاطباق.

**أحدها:** إلى شديدة ورخوة، حسب شِدّة العارض [١] ورخاوته.

**وآخر:** إلى مجهورة ومهموسة، حسب إشباع الاعتماد وإضعافه، كما تصور الحال هو[٢]، أو حسب اشتراك الأوتار الصوتية ومحايدتها كما نعتقد نحن.

**وثالث:** إلى مُطبقة ومنفتحة، حسب كَوْن الجزء الأخير من اللسان مرفوعاً[٣]، في إخراج الحرف، و مخفضاً [٤].

***

- **[الغُنّة]** [٥]:

لابُدَّ أن نُعيد – هنا – النظر إلى طريقة تختصّ بنطق حرفين من الحروف العربيّة وهما (النون والميم) واسْم خاصيّة

---

[١] في موضع تكوّن الصوت، والشدّة تعني هنا: غلْق المجرَى تماماً، أما رخاوته، فتعني تَرْك منفذ ضيّق يخرج منها الهواء.

[٢] يريد: سِيبَوَيه.

[٣] بالإضافة إلى رَفْع أوّله لتكوين مخرج الصوت حال النطق بأصوات الاطباق.

[٤] مع الأصوات المنفتحة وهي أصوات العربيّة كلها ما عدا (الصاد، والضاد، والطاء، والظاء).

[٥] الغُنّة: تصنيف صوتي مبني على خروج الصوت من الأنف، بعد ارتخاء الحنك الليّن، وانخفاضه؛ ليسّد مجرَى الهواء من الفم، فيفتح أمامه مجرَى الأنف، وسُميّت في الدرس الحديث بالأنفية، وأصواتها: النون، والميم، ينظر: (الكشف عن وجوه القراءات: ١/ ١٧٤، وأسس علم اللغة، لماريو باي: ٨٦).

النطق المومى إليها[١]، هي (الغُنّة) وهي: أنّ الناطق بـــ(الميم والنون) يرخى الجزء الأخير من الحنك الأعلى، حتّى يتّصل الحلق بالأنف، ويخرج النفس من الأنف، ومخرجه من الفم مُغلق: إمّا بطرف اللسان[٢] – كما هي حال النون – وأمّا بالشفتين، كما في الميم، ويعبّر سِيبَوَيه عن ذلك بقوله: "فإنما تخرجه من أنفك، واللسان لازم لموضع الحرف"[٣]، [٤].

***

**هذا ما لزم قوله في تقسيم الحروف عند سِيبَوَيه حسب طريقة انتاجها** [٥].

***

- **[مواضع إنتاج الأصوات]:**

وأما مواضع انتاجها، فعيّنها سِيبَوَيه في الباب الذي قد ذكرتُه غير مرّة، وهو الذي عنوانه "في عدد الحروف العربيّة..."[٦]، **وبما أنه بلغ في تعيين مواضع الحروف ومخارجها من الصحّة**

---

[١] أي: الذي اومأ (أشار) إليها.

[٢] مع اللثة.

[٣] يريد: الموضع الذي ينشأ فيه الصوت.

[٤] الكتاب: ٤/ ٤٣٥، وأصل قول شاده: "أنك تخرج الصوت من أنفك". والتصحيح من كتاب سِيبَوَيه.

[٥] أي: حسب صفاتها.

[٦] الكتاب: ٤/ ٤٣١.

**والدقة**، مما يعسُر علينا الزيادة والإصلاح [١]، وإن كانت عباراته تحتاج في بعض الأمكنة الى تفسير[٢]، أصرف النظر عن تعديد المواضع والمخارج كلّها، واكتفي بأن أذكر منها: أن سِيبَوَيه يجمع جميع المخارج في ست عشرة كتلة [٣]، يعزو ثلاثاً منها إلى الحلق، وعشراً إلى اللسان، واثنتين إلى الشفتين، وواحدة إلى الأنف.

اسمحوا لي أن أورد لَكُم – مَثَلاً – وصفَه لمخرج (اللاّم)، وقد اعتبرها سِيبَوَيه كتلة على حدتها، يقول فيها:

"**من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، وممّا فُوَيق الضاحك، والناب، والرباعية، والثنية: مخرج اللام**"[٤]. ولا يعسر عليكم فَهْم هذا الوصف، إذا اعتبرتم أنّ التحديد الأوَّل: (من أدنى حافة اللسان

---

[١] وفيها قال اللغوي الفرنسي كانتينو: "ونظرية مخارج الحروف عند النحاة العرب نظرية أحكموا ضبطها بعناية. "(دروس في علم أصوات العربيّة: ٣١).

[٢] هذا أمر طبيعي لرائد في هذا الميدان يتحدّث قبل أكثر من ألف واربعمائة سنة.

[٣] يريد بالكتلة هنا: المجموعة.

[٤] الكتاب طبعة بولاق ٢/ ٤٠٥، لأنها ساقطة من نشرة هارون طبعة دار الجيل، بيروت.

إلى منتهى طرفه) يمتدّ سطحيّاً من خلف إلى قُدّام [١]، في حين أن التحديد الثاني: ما بين حافة اللسان، وما يليها من الحنك الأعلى) يمتدّ عمودياً من تحت إلى فوق [٢]، وأما كلمة (من) في قوله: (مما فُويق الضاحك...)، فهي للبيان، فإنْ جاز أنْ تُكمل قول سِيبَوَيه، فمعناه: من أدنى حافة اللسان إلى منتهى طرفه سطحياً، وبين حافة اللسان، وما فويق الضاحك، والناب، والرباعية، والثنية من الحنك الأعلى حيث يلي حافة اللسان عمودياً، هناك مخرج (اللام)، وقدْ فَسّر سِيبَوَيه نفسه الجملة المسرودة بما يقوله (عن اللام) في موضع آخر من كتابه حيث يقول عنها: "ليس [هذا الحرف] [٣]. كالرخوة؛ لأَنَّ طرف اللسان لا يتجافَى عن موضعِه؛ وليس يخرج الصوت من موضع اللام [٤]، ولكن من ناحيتي مستدق[٥] اللسان فويق ذلك"[٦].

---

[١] هذا التحديد يصف اعتماد طرف اللسان على أصول الأسنان العليا مع اللثّة، وهو الوضع الذي يشكّل العائق، ويمنع خروج الهواء من وسط الفم.

[٢] وهذا التحديد يصف خروج الهواء من جانبي اللسان.

[٣] زيادة من (شاده) للإيضاح، والحرف هنا (اللام).

[٤] مع الرخوة يخرج الهواء من موضع نشوئها، أما مع اللام فالموضع قائم ثابت، والهواء يخرج من جانبي اللسان، ولهذا وُصِف اللام قديماً بالانحراف، وحديثاً بالجانبية.

[٥] مستدّق كل شيء: ما دقّ مِنْه وصغُر، أي: صار دقيقاً.

[٦] الكتاب: ٤/ ٤٣٥.

فلنقتنع بهذا النموذج [١]، لمذهب سِيبَوَيه في وصف مخارج الحروف[٢].

- **[الحركات]**[٣]:

لنُوجَه أنظارنا إلى حروف لم يعدّها العرب، وسائر الأمم السامية [٤]، من الحروف، أعني: الحركات، أما سِيبَوَيه ومن قلده

---

[١] الأنموذج.

[٢] أي: هو وصف يحتاج إلى بيان، وتفسير، وتوضيح، وهذا شأن كل من يكتب على غير مثال سابق، وفي ذلك الزمن الموغل في القِدَم.

[٣] الصوت اللغوي على قسمين: صحيح ومعتل، أو ساكن وحركة، أو: صامت وصائت، والمعتلات على نوعين: حركات طويلة وهي الألف، والواو، والياء، وحركات قصيرة هي الفتحة والضمة والكسرة، ومن أوضح ما يميز الحركة: كونها صوتاً مجهوراً يخرج الهواء معها بحرية كاملة، مع اتصافها بقوّة إسماع صوتي عالية، مع تلوين متنوّع لصوتها على وفق سياقات مقاطعها، وكلّ هذه القضايا الصوتية قد أدركها علماء العربيّة وأقوالهم فيها صريحة (يراجع كتابنا: دراسات لغوية في تراثنا)، وللحركات في اللغة العربيّة أهمية تتجسّد في:

- تيسير النطق، والتغلّب على صعوبة تجاور الأصوات الصامتة.
- كونها مقياساً للنطق الصحيح للغة.
- كونها أساساً لتقسيم الكلام إلى مقاطع، فهي نواة المقطع، وأبرز جزء فيه.
- كونها – أحياناً – أساساً لاختلاف المعاني، نحو: دَرَسَ، دَرَسا، درُوس (علم الصوتيات: ١٥٩).

[٤] ينظر: (في قواعد الساميات، د. رمضان عبد التواب، ١٤، ١٦).

من المتأخرين، فما يعتبرون الحركة إلاّ تلوينا أو صيغاً للحرف الذي يسبقه [١]. فَمن هناك أنه في (باب من إمالة الألف التي يميلها فيه ناس من العرب كثير) يعزو إمالة المقطع الذي قبل الأخير في (يضربها) [٢]، إلى الباء، ليس إلى حركتها [٣]. وأما الفتحة الطويلة التي يعبّر عنها في الخط العربي بزيادة الألف على الفتحة، فيعتبر سِيبَوَيه إمالتها في أكثر الأحوال إمالة للألف [٤]، وإنما أدّاه إلى هذا الرأي وهمُهُ أنّ هدف الألف هدفٌ صحيحٌ، ومن المفهوم أنها ليست إلاّ علامة خطيّة يُشار بها إلى مدّ الفتح السابق [٥]، فها لكم غلط أصلح غلطاً آخر.

***

لم يفُت سِيبَوَيه أنه لا يمكن تحريك حرف إلاّ بعد إزالة العارض المخصوص بهذا الحرف، فإنه يشير في (باب الإشباع

---

[١] اعتمد المحاضر على قول الخليل: "إنَّ الفتحة والكسرة والضَمّة زوائد، وهنّ يلحقن الحرف ليُوصَل إلى التكلّم به، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه. الكتاب: ٤/ ٢٤١.

[٢] بإمالة الألف.

[٣] قال سِيبَوَيه ٤/ ١٢٣: "وذلك قولك: يريد أن يضربِهَا...، لأَنَّ الهاء خفيّة، والحرف الذي قبل الحرف الذي يليه مكسور، فكأنه قال: يريد أن يضربا"، بإمالة الألف.

[٤] قال سِيبَوَيه: "هذا باب من إمالة الألف..." الكتاب: ٤/ ١٢٣.

[٥] أي: إنها فتحة طويلة.

في الجرّ والرفْع، وغير الإشباع)[١]، حيث يتكلم عن كسرة النون في كلمة (مِنْ مَأمَنِك) إلى أنّ النون لا تزال مبيَّنة، يعني أن موضعها – مع وجود الكاف بعدها – لا يُحَوّل من اللثة إلى الحنك الأعلى ما دامت النون متحركة[٢]، ولَوْ بحركة مختلسة فقط، ويستدلّ من ذلك أنّ تحريك النون وسائر الحروف، لا يمكن إلاّ بعد إتمامها [٣]، يعني: بعد إزالة العارض الذي أحدث النون، أو مَهْما كان من الحروف، ولم يكفِ هذا الإدراك، لأَنَّ يهدي سِيبَوَيه إلى معرفة **ماهيّة الحركات: وهي أصوات تحدث باهتزاز الأوتار الصوتية** [٤]، **وتعدّل بتهيئة اللسان والشفتين**، وليست هذه التهيئة –مثلاً– رفع الجزء المقدّم من اللسان[٥]، في انتاج الكسرة إلاّ عبارة عن مواضع الحركات ومخارجها، وإنْ كان سِيبَوَيه لم يستعمل هنا هذين المصطلحين. نعم، كل حركة لها موضعها[٦]،

---

[١] الكتاب: ٤/ ٢٠٢.

[٢] قال سِيبَوَيه: (قولهم: من مأمنك، فيبيّنون النون، فلو كانت ساكنة لم تحقق النون. "الكتاب: ٤/ ٢٠٢، يريد سِيبَوَيه أنّ يوضّح: بأنّ النون الساكنة قبل الكاف تكون على صفة بين الإظهار والإدغام، مع بقاء الغُنة في النون".

[٣] أي بَعْد إتمام عملية نطق الصوت.

[٤] أي إنها أصوات مجهورة.

[٥] نحو وسط الحنك الأعلى من دون أن يضيّق على مجرَى الهواء، حتى يخرج من دون احتكاك، مع اهتزاز الوترين الصوتيين.

[٦] حديث علماء العربيّة عن مخارج الحركات القصيرة نوعان:

- أولهما: من ربط بين الحركات القصيرة والحركات الطويلة (حروف المدّ)، وأن القصيرة هي أبعاض للطويلة، فعندما وصفوا الطويلة=

ومخرجها كسائر الحروف، فإنك إذا نطقت بـــ(كَسْرة): ترفع مقدّم لسانك إلى ما يُحاذيه من الحنك، كما تفعل عندما تنطق بـــ(الجيم)، إلاّ أنك في إنتاج الكسرة توسّع موضعها توسيعاً يفوق اتساع موضع الجيم [١]. بكثير، وإذا اعتبرت هذا التقييد، يُشابه لفظ الفتحة الممالة [٢]، لفظ الكاف ويُضاهي نُطْق الفتحة الأصلية نُطْق القاف...[٣]، ويصحّ مثل ذلك – تقريباً – عن الضمّة[٤]، إلاّ أنك تزيد فيها ضمّ شفتيك، ولم يصل سِيبَوَيه إلى أَنْ يعيّن موضع

---

=بأنّ مخارجها متسعة لا يعترضها عائق، وأنها مجهورة فالقصيرة –إذاً– ذات مخارج متّسعة، ومجهورة مع إدراكهم للفَرْق الزمني في استمرار أداء نطقهما، وسَعَة المخرج والجهر هما ما أكدت عليهما الدراسات الصوتية المعاصرة: غربية وعربية، وهذا ما ذكره أغلب علماء العربيّة.

– وثانيهما: من حاول بيان الكيفية الخاصة لأعضاء الجهاز حال النطق بالحركات على ما وضح لديهم كما فعل الفَرَّاءُ الكوفي (٢٠٨هـــ)، في كتابه (معاني القرآن ٢/ ١٣).

[١] لأَنَّ اللسان مع صوت الجيم يلتصق بالحنك الأعلى، ثم ينفصل تدريجياً.

[٢] أي: الفتحة المشوبة بالكَسْرة، وألف المدّ إذا أميلت تصبح – أيضاً– مشوبة بِنَوع من الكَسْر، وهما تمثيل لِنُطْق لهَجَي.

[٣] هنا إشارة إلى مشاركة اقصى اللسان – منطقة نطق القاف والكاف – في نطق الفتحة الممالة، والفتحة الأصلية.

[٤] أي: مشاركة أقصىَ اللسان، وارتفاعه قليلاً إلى جهة أقصى الحنك في نُطق الضمّة، فهي من الحركات الخلفية.

الحركات، إلاّ أنه اقترب من تعيين موضع الفتحة الطويلة الأصلية، حيث قال في (باب ما يمتنع من الإمالة من الألفات): "الألف إذا خرجت من موضعها (يعني إذا كانت غير ممالة) استعملت إلى الحنك الأعلى"[1].

***

هذا أهم ما وجدناه في كتاب سِيبَوَيه من وصف الحروف والحركات على حدتها، إلاّ أن سِيبَوَيه لمْ يتحدّد في ملاحظاته على الأصوات المجرّدة، بلْ باشر دراسة تأثير بعضها في بعض أيضاً.

***

- **[ملاحظات تمهيدية حول التشكيل الصوتي]:**

وإنما لابُدَّ من أن نحضّر ميدان البحث ببعض الملاحظات التمهيدية، منها:

- إنَّ أهمّ المدارك التي وصل إليها علم الأصوات العصري في هذا الباب قاعدة وفق إلى اثباتها منذ خمسين عاما عالم سويسري يُدعَى (فينتلر)، ومآلها أن الناطق بحرفين متواليين يقتضيان حركة مشتركة بينهما من حركات آلات النُطْق، لا يجيء بهذه الحركة إلاّ مرّة واحدة[2]، وذلك مثل قولك:

---

[1] الكتاب: ٤/ ١٢٩.

[2] أي: ينطقان بإدغام أحدهما في الآخر؛ لتكون الحركة النطقية واحدة باستمرار زمني أكثر في الأداء النطقي.

وعدْتَ[١]، وليس: وعدْ–تُ[٢]، أو وعدّنا[٣]، وليس: وعدْ – نا، يعني: أنّ عارضاً يوافق الحرفين لا يزيله الناطق بعد الحرف الأوَّل، ليعيد إيجاده في الحرف الثاني، بل يُديمه من بدْء الحرف الأوَّل، إلى أن يقتضي الحرف الثاني إزالته[٤].

- ومن المفهوم أنّ ذلك لا يصحّ عن تضييق مخرج النفس وسدَّه فقط[٥]، بل عن كلّ حركة تستطيع آلات النطق عليها، مثل (الجهارة، والغنّة، والإطباق)، فإذا قلتَ –مثلاً–: إبدال، تحافظ على مطّ الأوتار الصوتية[٦]، بعد اتمام (الباء)، وتستخدمه لإنتاج الدال، كما أنك إذا قلت: أم تأخذ، تديم المواصلة بين

---

[١] أي يريد الصورة النطقيّة: وعتُّ، بإدغام الدال في التاء.

[٢] أي: ليس بنطق الدال، والتاء منفصلين.

[٣] بالإدغام.

[٤] أي: إنَّ الكيفية التي عالج اللسان هذا الوضع النطقي المتماثل هو ارتفاع اللسان بالصوتين المتجاورين معاً – بعد إدغامهما – بدلاً من تكرار العمل بهما مرّتين – قبل الإدغام – وبهذا يُختزل الثقل النطقي ويخفّ المجهود العضلي الذي يبذله اللسان، وفي هذا قال سِيبَوَيه: "... كان أخف عليهم ألا يستعملوا ألسنتهم إلاّ مرة واحدة". الكتاب: ٤/ ٤٥٤.

[٥] بمعنى إنَّ الإدغام لا ينحصر في الأصوات الرخوة والشديدة كما مثّل لبعض أصواتها، بل يشمل ما ذكره فيما بعد كالمجهور والأغن والمطبق وسيمثل لها: بالباء، والميم، والصاد.

[٦] عبارة (مطّ الأوتار) يعني بها صفة الجهر.

حَلْقك وأنفك[١]، الموجودة في نُطق الميم؛ لأنها مطلوبة في النون أيضاً، وإذا قلت: اصطلاح، لا تُرخى الجزء المؤخّر من لسانك بعد الصاد، بل تستمر عليه، لتستعمله في انتاج (الطاء)... [٢]، ولا يخفى عليكم أَنّ النزعة التي تعمّ كلَّ هذه التبسيطات هي (جنس من الاقتصاد)، ولم يَفُت ذلك سِيبَوَيه فإنه يقول–مثلاً– في(باب ما تمال فيه الألفات)[٣]: "يريد [المتكلم][٤]، في الإدغام – يعني في عدم إزالة العارض بين متواليين–[٥]، أنْ يرفع لسانه من موضع واحد"[٦]، وإذا أمعنّا النظر في عبارة سِيبَوَيه هذه، وجدناها تُجاوز الحقيقة قليلاً، فإنّه لاشكّ أَنّ مَنْ قال: إبدال –مثلاً– أو: أم نأخذ، يُباعد بين شفتيه، بعد إتمام (الباء) أو (الميم)، ولكنّه حين يفعل ذلك مُشتغل بإيجاد عارض جديد[٧]، بأنّه يضع طرف لسانه على لثّته لإنتاج الدال أو النون، وقَدْ يقع أنّه قدْ أتمّ هذا العارض الثاني قبل إزالة الأوَّل،

---

[١] إشارة إلى غلق طريق الهواء من الفم، وفَسْح المجال له ليخرج من الأنف.

[٢] إشارة إلى رَفْع آخِر اللسان، لتكوين شكل الطبق لإنتاج الصوتين المطبقين: الصاد، والطاء.

[٣] الكتاب: ٤/ ١١٧.

[٤] زيادة من المحاضر (أ. شاده) للإيضاح.

[٥] زيادة من المحاضر (أ. شاده) لشرح المراد من مصطلح الإدغام.

[٦] الكتاب: ٤/ ١١٧.

[٧] أي: بحركة نطقية جديدة.

ونتيجة لذلك أنّ إزالة العارض الأوّل، يعني: المباعدة بين الشفتين تكاد لا تسمع، وتكون كأنّها لمْ تحصل، فَمن هذه الجهة، وبهذا التقييد يصحّ قول سِيبَوَيه المذكور[١].

***

- **[من أهداف الإدغام: التماس الخفّة، والحرص على البيان]**

ومن اللازم أنْ نجرّبَ صحّةَ رأي آخر من آراء سِيبَوَيه، وهو أن سِيبَوَيه يعزو كلَّ تغيير في لفظ كلمة، أو كتلة كلمات إلى سببين:

- التماس الخفّة[٢]، يعني حاجة المتكلّم إلى تخفيف النطق.
- والحِرْص على البيان[٣].

وكلتا هاتين النزعتين موجودتان حقيقة، إلاّ أننا نخالف سِيبَوَيه في كيفية اعتبارهما، وذلك أنه يعتبرهما عَمَلَين[٤]، يشعر الناطق بوجودهما[٥]، كأنّه إذا صار يقدّم (أداة التعريف) على كلمة (شمس)[٦]، يقول لنفسه: خُذْ بالَك! [٧]، الشّين من مخرج اللام،

---

[١] أي: لم يكن متجاوزاً للحقيقة كما وصفه المحاضر، ويدفع عَنْه هذا النقد تماماً إذا غيرنا الأمثلة التي اتّكأ عليها.

[٢] الكتاب: ٢/ ٤٥٤.

[٣] الكتاب: ٤/ ١٧٨، ١٩٩، ٤٤٠، ٤٤٩.

[٤] في الأصل كعملين.

[٥] أي: يقصدهما قَصْدا.

[٦] في الأصل: الشمس.

[٧] العبارة توضح تأثر المحاضر باللهجة المصرية، وهي بمعنى: انتبه.

فيلزم أنْ تُدغم اللام فيها[١]، ونعلم – الآن– أنَّ حوادث النفس [٢]– مثل المومى إليه – [٣]، تحصل في أغلب الأحوال، والمتكلم لا يشعرُ بها[٤]، ويصحّ عين ذلك[٥]، عن النزعة الثانية – التي يفرضها سِيبَوَيه أعني: حاجة المتكلم إلى البيان، فإنه يحتمل[٦]، أن المتكلم يجتنب تغييراً لسبب خاصّ، فبينما يقول – مثلاً – ذو الحجّة، ويهمل الاعتبار بـــ(واو المدّ)؛ لأَنَّ الحرف الذي يتلوها ساكن[٧].

ويقول: مسلمو القاهرة، ويعتبر بـــ(واو المدّ) كلّ الاعتبار، لِئلاّ يُوهم السامع أن هناك مسلماً واحداً فقط[٨]، إلاّ أن عكس ذلك، أعني: تغيير اللفظ عن قَصْد، لتكثير البيان، وهو نادر جداً، وما

---

[١] فتقول: الشمس، بإدغام اللام في الشين.

[٢] يريد تحركات جهاز النطق حال التصويت.

[٣] يريد إدغام اللام في الشين في لفظ، الشمس.

[٤] وربما هذا هو قَصْد سِيبَوَيه أيضاً، فهو لمْ يصرّح بأنّ المتكلّم يعمد إلى هذا التغيير، بلْ هذا حديث مجتهد لتفسير الحوادث الصوتية، وقد يخونه التدقيق في العبارة، ونلفت النظر هنا مرّة أخرى، نحن أمام رائد في هذا الميدان يتحدّث قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام.

[٥] أي: نقده السابق لسيبويه.

[٦] هذا افتراض وليس يقيناً.

[٧] يُهمل نطق الواو، لالتقاء الساكنين، وإهماله هنا لا يؤثّر في المعنى.

[٨] أي: لابدّ من نطق واو (مسلمو)؛ لأَنَّ في إسقاطهما اختلالاً في المعنى بخلاف واو (ذو الحجّة).

أعرف له مثالاً لاشكّ في صحّته، إلاّ لفظ بعض الأعداد في استعمال التلفون، كما هي العادة في وطني [١]، عند التلفظ بكلمة (الاثنين)، فإنّ لفظهما العادي هو (تسواي)، ولكن في التلفون نقول: تسوو، لِئَلاّ يشتبه السامع بين (تسواي) يعني: اثنين، و (دراي) [٢]، يعني: ثلاثة، ويوجد مثل ذلك في اللغة العربيّة في مصر[٣]، لاجتلاب اللعنة، حين يقول قائل – مثلاً –: ينعل أبوه، أو: نعلة الله عليه[٤]، ولكنْ مثل هذا – كما قلنا – من النوادر، والعادة هي أنّ الناطق يغيّر نطق الحرف، ولا يقصده، بلْ ولا يشعر به.

ويجب أن نجيء ببعض الأمثال للحوادث الصوتية التي **يعزوها سِيبَوَيه إلى التماس الخفّة: فمنها:** المضارعة[٥]:

وهي أنّ الصاد، والشين[٦]، كانتا تصيران في بعض اللهجات مجهورتين، حينما تتلوها دال[٧]، وذلك قولك: المصدر

---

[١] ألمانيا.

[٢] أي: للتقارب النطقي المسموع في التلفون بين (تسواي) و (دراي).

[٣] في الأصل: في العربي في مصر.

[٤] يريد يلعن ولعنة، وقد حدث فيهما قَلْب مكاني في اللهجة المصرية، والصحيح يلعن أباه.

[٥] أي: تقريب صوت من صوت.

[٦] وهما مهموستان.

[٧] أي حين يتلوهما صوت مجهور، والمجهور أقوى من المهموس، فهو المؤثّر في جاره المهموس غالباً.

-بزاي مطبقة-[١]، بدلاً عن (المصدر)[٢]، أو أشدق – بشين مجهورة -[٣]، – بدلاً عن (أشدق) [٤]، ويفسّر سِيبَوَيه مثل هذه الأمثلة بما يقوله في باب (الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه) [٥]، ويقول هناك: "وإنما دعاهم إلى أَنْ يقرّبوها – يعني يقرّبون الصاد من الزاي[٦]،– أن يكون عملهم من وَجْهٍ واحد، وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد[٧]،"[٨].

ويوافق قول سِيبَوَيه هذا ما سميناه "نزعة الاقتصاد"[٩]، إلاّ أنّ سِيبَوَيه يعتبر هذه النزعة كشيء يَشعرُ به المتكلم [١٠]، وهذا هو ما نخالفه فيه، فإنّنا نذهب إلى تشبيه الحرف بالحرف التالي[١١]، أو تقريبه منه[١٢]، يعادل فَتْح الآكل فمه قبل أن يبلغ الطعام شفتيه[١٣]،

---

[١] أي تنطق الصاد المطبقة، وفيها شيء من صوت الزاي.

[٢] أي: بصاد خالصة، من دون تقريب بين الصاد والدال.

[٣] أي: تنطق الشين، وفيها شيء من صوت الجيم أو الزاي.

[٤] أي: بشين خالصة، من دون تقريب بين الشين والدال.

[٥] الكتاب: ٤/ ٤٧٧.

[٦] أي: لم يصلوا إلى حد الإدغام.

[٧] وبهذا تحصل الخفّة.

[٨] الكتاب: ٤/ ٤٧٨.

[٩] أي: موافقة الدرس الصوتي المعاصر لما قاله سِيبَوَيه.

[١٠] وهو أمر ظنّي لا قطعي، كما ذكرنا في هامش سابق.

[١١] حال المماثلة الكلية (الإدغام) بين صوتين.

[١٢] حال المماثلة الجزئية (التقريب أو المضارعة) بين الصوتين.

[١٣] أي: إنَّ الناطق يبدأ بتغيير الصوت لعِلْمِه بالصوت التالي له.

كذلك شخص يريد أنْ ينطق بكلمة (المصدر) مثلاً – بينما هو ينطق بالصاد، يهيّء أوتاره الصوتية كما تقتضيه الدال، ونتيجة ذلك العمل الغريزي هي أَنّ جهارة الدال تنتقل إلى الصاد، فتصير زاياً– أعني زاياً مطبقة–[١].

ويصحّ عكس ذلك عن الأحوال التي يُقَرِّب فيها حرف إلى سابق، مثل (فَحَصْطُ) – بالطاء – بدلاً عن (التاء) في لغة[٢] بني تميم، أو (اصطبر) – بالطاء – بدل (التاء) [٣]، في العربيّة العامة.

فإن هذا التقريب بمثابة عمل رجلٍ ينسَى أن يُطفئ مصباحه الكهربائي حين يرجعه إلى جيبه، يعني أَن الناطق بـــ(فَحَصْطُ) – مثلاً – يحافظ على إطباق (الصاد) بعد إتمامها، فينتقل الإطباق إلى (التاء)، ويحوّلها إلى (طاء)، أو بالحَرَى إلى (تاء مطبقة)، فإنّ (الطاء) هي عند سِيبَوَيه – كما ذكرنا – دال مطبقة[٤].

***

[١] ولم يبدلوها زايا خالصة كراهية الإجحاف بذهاب إطباق الصاد – ومثله – نطق (عنْبر) بالميم: عَمْبر، فالناطق يقلب النون الساكنة ميما قبل وصوله إلى الباء.

[٢] يريد في لهجة، والأصل: فحصت (فصارت فحط)، (الكتاب: ٤/ ٢٤٠).

[٣] لأَنَّ الأصل: (اصتبر) فيؤثر صوت الصاد المطبقة في التاء المنفتحة، فيقلبه إلى صوت مطبق من مخرج التاء أيضاً وهو (الطاء).

[٤] في قوله: "ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً". الكتاب: ٤/ ٤٣٦.

فمآل بحثنا عن أصل تقريب الحروف، وإبدالها أن نصيب الغفلة والنسيان في إحداث مثل هذه الحوادث يفوق نصيب التفكّر، والقصْد بكثير[١].

***

- **[ومن الحِرْص على البيان: الوقف على الهمز]**

ومن الحوادث التي يفسّرها سِيبَوَيه بِحِرْص المتكلّم على البيان: ما يذكره في (باب الوقْف في الهمز) أن بعض العرب، لمّا وقفوا على كلمة (الكلأ) مرفوعة، قالوا: هو الكَلَوْ[٢].

ويزعم سِيبَوَيه أن أصل الواو التي عندهم [٣]، في آخر الكلمة هو (الهمزة)، كأنّ المتكلمين حوّلوا (الهمزة إلى واو)؛ ليومِئُوا بها إلى كون الكلمة مرفوعة، وذلكم بعيد من جهتين.

- إحداهما: أن أصحاب تلك اللّهجة لم يكادوا يهتمّون بكون الكلمة مرفوعة، أو غير مرفوعة [٤].

---

[١] أي: إنها عمليات نطقية لا شعورية – غالباً –.

[٢] وتمام قول سِيبَوَيه: "هو الكَلَوّ، حرصاً على البيان". (الكتاب: ٤/ ١٧٨).

[٣] وهم الذين يحقّقون الهمزة.

[٤] هذا غير دقيق فسيبويه ميّز بين اللهجتين: فقال: "وهذا [أي: الكلو] وقفُ الذين يحققون الهمزة، فأما الذي لا يحققون الهمزة من أهل الحجاز فقولهم: هذا الخبأ، في كلّ حال"، (الكتاب: ٤/ ١٧٩)، أي: إنَّ هناك من يراعي الحالة الإعرابية، وهناك مَن لا يراعيها.

- والأخرى: أنّ الهمزة يتعسّر عليها التحول إلى واو، لأَنَّ مخرج الهمزة من الحلق، ومخرج الواو من بين الشفتين[١]، وإنما الأصل الحقيقي لتلك الواو، هو الضمة التي في آخر الكلمة في الوَصْل.

ويدلّ على صحّة هذا الرأي أن العرب الذين كانوا يقولون: هو الكَلَوْ – عند الوقف على الرفْع – كانوا يقولون: من الكَلَي، في الجرّ[٢]، وأظن أنّ السبب الذي أضَلّ سِيبَوَيه في هذه المسألة هو عدم اعتباره الحركات حروفاً، فلَمْ يجترئ أنّ يعزو أصل تغيير حرفٍ إلى حركة[٣].

***

- **[ومن الحرص على البيان: الكَسكَسَة]**

وقد جاء سِيبَوَيه بشبه تلك النظرية الغربية في (باب الكاف التي هي علامة المضمر)[٤]. حيث يقول: "واعْلَم أنّ ناساً من العرب يلحقون الكاف السين[٥]؛ لأنها قد تكون من حروف الزيادة

---

[١] هذا صحيح، ولكن كون الهمزة محرّكة بالضم في نحو: هو الكَلأُ، فأُبدِلت واوا حال الوقْف هو ما ذكره المحاضر نفسه، في بيان أصل الواو.

[٢] ويقول عند الوقف على النصب: رأيت الكَلا، بالألف.

[٣] ويبقى الأمر ظنيّا في تفسير قصد سِيبَوَيه من قوله: الحِرْص على البيان، في هذا المثال، أما الزّعْم الذي نقله أ. شاده ونسبه إلى سِيبَوَيه فلم أقف عليه بعد.

[٤] الكتاب: ٤/ ١٩٩.

[٥] حال الوقف.

في استفعل[١]، وذلك: أعطيْتُكِسْ وأُكرِمْكِسْ"[٢]، يعني: أعطيتُكِ، وأَكرِمُكِ، ومَنْ لمْ يشعر بما في هذا التأصيل من المحال، فليتصوّر جلسةً لمجمع العلماء البدويين يتشاورون في ما هي خير وسيلة لِصَونِ كَسْرة التأنيث المشرفة على الهلاك[٣]، ولْيتخيّل أنّه بعد طول المناقشة، يقوم استاذ بدويّ، ويقول: اعلموا أنّ لي فكرة، هناك سين قَدْ أتت، لِتبيّن معنى خصوصي[٤]، في (استفعل)، فلنستخدمها هنا ايضاً، هي تصلح لغرضنا [٥].

وإن كان سِيبَوَيه قدْ سلكَ في تأصيل بعض التغييرات التي تحدث في الحروف طريقاً لا نقتفيه عليه، فقد أصاب أدقّ الاصابة في ملاحظة كمَّل بها قانون الخفة السالف الذِكْر.

وهي أنه أثبت ما يكون جوار الصوتين المؤثرّين في بعضهما، أشدّ ما يكون تأثير القانون المذكور، فإنّ ذلك معنى قوله في (باب ما يمتنع من الإمالة...) [٦]: "وأعلم أنّ بعض من يقول:

---

[١] بمعنى أنها يمكن أن تكون زائدة في غير صيغة (استفعل).

[٢] وتمام قول سِيبَوَيه: "فإذا وصلوا لم يجيئوا بها، لأنَّ الكسرة تبين". وهناك من يُلحق الشين بكاف الضمير المخاطبة حال الوقف، فيقولون: أعطيتكش وتسمّى الظاهرة هنا بـــ(الكشكشة) التي نُسبت إلى ربيعة، بينما نُسِبت الكسْكَسة إلى هوازن.

[٣] بسبب الوقف بالسكون.

[٤] وهو معنى الطلب الذي تدلّ عليه السين مشتركة مع الألف والتاء.

[٥] وهو الحرص على بيان كَسرْ كاف الضمير للمخاطبة.

[٦] الكتاب: ٤/ ١٢٨.

عابد – من العرب – فيُميل، يقول: مررتُ بِمالكَ فَينصب؛ لأَنَّ الكسرة ليست في موضع تلزم [1]، وآخر الحرف قَدْ يتغيّر، فلم يقوَ عندَهم".

***

يجوز أن نكتفي بهذا، دراسة لرأي سِيبَوَيه في تأثير الأصوات في بعضها، والأحوال التي تسوّغ وقوعه، أما المواقع التي لاحظ فيها سِيبَوَيه تأثير صوت على صوت فهي من الكثرة، حيث يتعسّر علينا تعدادها، وبالأولى تحليلها، فلابدّ أن نقتنع بانتقاء مثال أو مثالين لكلّ كُتلةٍ من الحوادث الصوتية التي تدخل في هذا الباب.

***

- **[الإمالة]:**

فَمِن تقريب صوت إلى صوت تالٍ، أوْ سابق –والحال الثانية أندر من الأولى– يعدُّ سِيبَوَيه، ونعدُّ نحن حادثاً صوتياً مشهوراً، وهو الحادث الذي يسميه النحويون العرب(الإمالة): وهي تقريب لفظ فتحة قصيرة أو ممدودة–يعني فتحة تليها ألف–[2]، من لفظ الكسرة، وأكثر ما يكون سبب هذا الحادث وجود كسرة بجوار

---

[1] أي: تلزمه.

[2] عبارة من المحاضر لشرح الفتحة الممدودة.

الفتحة الممالة، كما يقع في قولك: عابِد، وعِماد، وما يشبههما[١]، وقد فهم سِيبَوَيه ماهيّة هذا الحادث – كما ذكرنا – حقّ الفهَم، إلاّ أنه رأى هنا أيضاً "قصد المتكلم "حيث نرَى – نحن – غريزته[٢]، على الأكثر، وأنه يعزو إلى الألف مشابهة للياء، نشكُ في وجودها أشدُّ الشكّ، فإنهما – وإنْ كانت كلتاهما متسعتي المخرج، فمخرج الألف لو كان لها مخرج – من الحلق "هذا رأي سِيبَوَيه"[٣]، أو بالحَرَى من مؤخّر اللسان كمخرج الفتحة، التي تدلّ الألف على مدّها، وأما مخرج الياء فهو من مُقدّمِ اللسان[٤].

---

[١] قال سِيبَوَيه: "وإنما أمالوها [الألف] للكسرة التي بعدها، وأرادوا أن يقرّبوها منها"... الكتاب: ٤/ ١١٧، فعلّة الإمالة وجود (الألف) في تتابع صوتي مؤلّف من: ألف المدّ + صامت مكسور كما في عابد، أو صامت مكسور + ألف المدّ كما في عِماد – وما بينهما صوت واحد غالباً – ولا يخفى الاختلاف، ما بين نطق الألف، ونطق الكسرة، فالألف يتطلّب انفتاح الفم مع استواء اللسان في قاع الفم، وهذا بخلاف الوضع النطقي مع الكسرة أو الياء، فَمِن أجْل التقريب بين الوضعين المتخالفين، وإيجاد التناسب الصوتي، تُنطق الألف من دون انفتاح الفم، ليقترب وضع نطقها من نطق الكسرة أو الياء، فالأمر هنا هو إيجاد انسجام بين أصوات اللين.

[٢] أي: إنه عمل لا شعوري.

[٣] الكتاب: ٤/ ٤٣٣.

[٤] أما وصف سِيبَوَيه للياء غير المدية فمن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى، (الكتاب: ٤/ ٤٣٣).

**وكلّ ذلك لا يقدر أنْ يقلّل الفَضْل الذي لسِيبَوَيه بأنّه فسّر إمالة الفتحة القصيرة والممدودة بالإجمال تفسيراً صحيحاً**[١]، وأمّا إمالة بعض الحروف فلم يُخطِئ في تفسيرها فقط، بلْ لمْ يفهم ماهيتها، وسببُ خطئه هذا – أظن – أنه اقتنع برئاسة الحروف على الحركات اقتناعاً كاد يمنعه أنْ يعتبر حركة [هي] [٢] سببُ أيّ تغيير في لفظِ حرفٍ، وأمّا نحن فلا نشكّ عندنا في أنّ حروف اللسان – ليس حروف الحلق وحروف الشفتين – قد تتأثر بكسرة تالية، أو سابقة تأثراً لا يقلّ عن قابلية الفتحة للإمالة، ونعتقد أنه لا [يوجد] [٣]، فرق أساسي بين الحادثين.

***

- **[إمالة الأحرف]:**

فمِن "إمالة الأحرف"[٤]، إن كنتم تسمحون لي بهذه العبارة، تحويل الضمير المتصل للمخاطبة من (كِ إلى شِ) في لغة كثير من تميم، وناس من أسد، كما يقول سِيبَوَيه [٥]، وذلك مثل: إنَّشِ،

---

[١] وهو الميل إلى إيجاد التناسب والانسجام بين وضعي نُطق الألف ونُطق الكسرة، من أجل الخفة والاقتصاد في المجهود العضلي الذي يبذله جهاز النطق.

[٢] زيادة من المعلّق يقتضيها إيضاح السياق.

[٣] السبب نفسه.

[٤] إمالة الأحرف الصحيحة، هو اصطلاح جديد.

[٥] الكتاب ١٩٩/٤ وليس هذا الإبدال على إطلاقه، بل في حال الوقف.

بدلاً من "إنَّكِ"، أو مالشِ[١]، بدلاً من "مالكِ".

وقد فسّر سِيبَوَيه هذا الحادث الغريب – حسب عادته – بِقَصْد المتكلّم إلى تقوية "الفصل بين المذكّر والمؤنّث"[٢]، والغالب عندنا أَنّ الكسرة اللاحقة لـــ(كاف المخاطبة) أثّرت في لفظ (الكاف) وحوّلتها إلى (شين)، أو شيء يُشبه الشين [٣]. كما أن الكلمة اللاتينية (Carum) صارت (Caro) في الايطالية، في حين أن (Circa) أو (Kirka) حسب اللفظ القديم – صارت (Cirka)[٤]، وتؤيد رأينا ملاحظة اللهجات النجدية الحديثة حيث (فيكَ) – مثلاً – صارت: (فيكْ)، في حين أنّ (فيكِ) صارت (فيجْ)[٥].

- **[من موانع الإمالة: الراء المفتوحة والمضمومة]:**

وهناك حرفٌ آخر – فاتت سِيبَوَيه مقاساته لتأثير كَسْرة مجاورة – وهو الراء. فإن سِيبَوَيه قد لاحظ أن هذا الحرف، إذا كان مفتوحاً أو مضموماً، يعطّل تأثير كَسْرة موجودة في الكلمة

---

[١] ومثله نُطْق لهجيّ في جنوب العراق والخليج يبدلون كاف المؤنث جيما فارسية، وهو صوت يماثل الصوت الانجليزي (ch) في كلمة (chair).

[٢] الكتاب: ٤/ ١٩٩، ويرى أَنّ الفصل بحرف أقوى من الفصل بحركة، ومنه في العربيّة: ذهبن، وذهبوا، فالفصل بالنون للمؤنث.

[٣] ولعله يقصد صوت (ch) الانجليزي.

[٤] اللاتينية أصل للإيطالية.

[٥] أي: إنَّ حركة (كاف) المخاطب قد سقطت، أما كاف المخاطبة نفسها فقد تحوّلت إلى صوت (ch).

نفسها[١]، فإذا كانت الراء مكسورة، فتُميل هذه الراء المكسورة فتحة تجاورها[٢]، ولو كان تأثير آخر يعارض الإمالة[٣]، فمن هناك أنك تقول: حِمارٌ، ولا تُميل الفتحة – أو الألف حسب عبارة سِيبَوَيه[٤] – لأَنَّ ضمّ الراء يغلب كسرّ الحاء، وبعكس ذلك أنك تقول [٥]: من المُعارِ[٦]– بالإمالة–؛ لأَنَّ كسر الراء يفوق ضَمّ الميم[٧]، هذا كله أثبته سِيبَوَيه إثباتاً واضحاً، إلاّ أن علينا أن نسأل:

**ما هو سبب غلبة الراء، أو بالأحرى حركتها؟**

أمّا سِيبَوَيه فَعزَاها إلى "تكرار الراء" يعني الى اهتزاز طرف اللسان في نطقها[٨]، وزعم أنّ الراء في مثابة راءين[٩]، وأنه لذلك يضاعف كلّ تأثير تؤثّره.

---

[١] الكتاب: ٤/ ١٣٦، أي: إنَّ الألف لا تمال وبعدها راء مضمومة أو مفتوحة.

[٢] يقصد فتحة طويلة، أي: صوت الألف.

[٣] يريد أن يقول: إنَّ الراء المكسورة تؤثّر في الألف فتميلها، حتى وإن كان قبل الألف أحد الأصوات المستعلية التي تعارض الإمالة وتمنعها (الكتاب: ٤/ ١٢٨).

[٤] قول سِيبَوَيه: "وإذا كانت الراء بعد ألفٍ تمال..." الكتاب: ٤/ ١٣٦.

[٥] أي عكس عدم الإمالة (الفتح).

[٦] أي: من المتداول.

[٧] أي: كسر الراء يفوق كل حركة سابقة.

[٨] أي: تكرار ضربات طرف اللسان على اللثة.

[٩] قال: كأنها مضاعفة (الكتاب: ٤/ ١٣٦)، ولعلّه قدّر ذلك لتكرار ضربات اللسان، وهذا التضعيف أو التكرار أكسب صوت الراء قوّة.

وأما نحن فنفضّل على هذا التفسير تفسيراً آخر وهو: "**إنَّ كسر الراء يمنع الناطق من أن يحدَّب**[١]**، طرفَ لسانه إلى فوق، كما يقتضيه لفظ الراء المكررة**[٢]**، ونتيجة ذلك أن الراء تتشبّه بالجيم، والياء**[٣]**، وبما أنَّ الكَسْرة من مخرج الياء، يُفهم أن تَسْطيح الجزء المقدّم المرفوع من اللسان يؤدّي إلى الإمالة.**

إذا كانت الراء حرفاً يعدّي تأثير الكسرة أو الياء إلى الفتحة بعد أن قاسى ذلك التأثير ببدئه[٤]، فلنا حروف أُخر تسهّل تأثير الكسرة بأن تُخلي سبيله، وهي حروف الحلق، فَإنّها – بما أن اللسان لا نَصيب له في انتاجها[٥]،– تسمح له أن يبقى[٦] مرفوع الجزء المقدّم، كما هو[٧]، في الكسرة، حتى يصل المتكلّم إلى حركة أخرى.

---

[١] أي: يُقَوّس، أو يُعطَف.

[٢] التي لابُدَّ لها من تقوّس طرف اللسان إلى الأعلى ليضرب اللثة.

[٣] أي: إنَّ طرف اللسان يبقى على حاله مسطحاً مع هذه الأصوات، وما يتحرّك هو وسط اللسان.

[٤] أي: إنَّ الامالة تؤثّر في جرس صوت الراء المكرّر.

[٥] لكونها تنتج في منطقة الحلق.

[٦] أي: اللسان.

[٧] أي: كما هي الحال.

فلا غروَ أن هذه الحركة[١] الأخرى تأخذ رائحة من الكسرة، أو تتحوّل إليها: فهذا ما قد حصل في كلمتي (بِهِ) و(لَدَيهِ)[٢]، فإن أصلهما[٣]، بلا شك (بِهُ) و (لديهُ).

وأما بـــ(كمُ) و (لديكمُ) فبقيتا في أكثر اللهجات العربيّة على أصليهما[٤]؛ لأَنَّ الكاف ليست لها حذاء الحركات محايدة (الهاء)[٥].

وقد اقترب سِيبَوَيه إلى معرفة هذه المحايدة حيث يقول في (باب من إمالة الألف يميلها فيه ناس من العرب كثير) [٦]، ما يأتي:

"وذلك قولك: يريد أن يَضربْهَا[٧]...؛ لأَنَّ الهاء خفيّة[٨]...

---

[١] أي: تصعّد الجزء المقدّم من اللسان.

[٢] هنا حصل إتباع حركة الهاء للكسرة أو الياء السابقتين لها بسبب قانون المماثلة بين الحركات، وهذا هو الأمر في الفصحى، وهناك مَنْ يكسر الهاء مطلقاً – على المستوى اللَّهجَي – فيقول: منهم، عنهم وهي لهجة تسمّى بـــ(الوَهْم) وقد وصفها سِيبَوَيه بالرديئة، وهناك مَن يضم الهاء فيقول: مررت بهِوُ (الكتاب: ٤/ ١٩٥).

[٣] الأصل المفترض.

[٤] وهناك من عامل الكاف معاملة الهاء فَكَسَرها إذا سُبقت بكسرة (بكم)، أو بياء (عليكم) على وفق قانون المماثلة بين الحركات، وسُميت هذه اللهجة بـــ(الوكْم)، ونُسبت إلى ربيعة وقوم من كلب (الكتاب: ٤/ ١٩٧).

[٥] سبقه المبرد في تغليط مَنْ أجرَى الكاف مجرى الهاء؛ لعدم التشابه بينهما في الخفاء الذي من أجله جاز ذلك (المقتضب ١/ ٢٦٩).

[٦] الكتاب: ٤/ ١٢٣.

[٧] بإمالة الألف بعد الهاء.

[٨] ولصوتها الخفيّ فكأنها غير حاجزة بين الراء المكسورة، وبين الألف.

فكأنه قال: يريد أن يضربا[١].

ولو[٢]، اعترض أحد بأنّ هذا[٣]، من الإمالة، وذلك من التحويل[٤].

أجبناه: إنَّ التحويل ليس إلاّ إمالة كاملة[٥]، أو الإمالة تحويل ناقص[٦]، وإن كان سِيبَوَيه نفسه لَمْ يدرك حقّ الإدراك أن الحادثين حادثٌ واحدٌ فقط في ذاتهما، بل تاه في تأملات[٧]، فيما بين (الهاء، والياء، والألف) من التناسب[٨]، وحاول أن يفسّر تحويل الضمّة إلى كسرة من هناك، إلاّ أنه بعد تلك التأملات يقول: "فالكسرة [يعني كسرة الهاء في بهِ] ههنا كالإمالة في الألف؛ لكسرة ما قبلها، وما بعدها، نحو: كِلاب، وعابد"[٩]. ولو اقتنع بهذا التشبيه عمّا قاله في تناسب الهاء، والياء، والألف، لكان أقرب له إلى الصواب[١٠].

***

---

[١] بإمالة الألف، الكتاب: ٤/ ١٢٣.

[٢] المحاضر يطرح إشكالاً.

[٣] أي: نطق الألف في (يضربها).

[٤] أي نطق (بهِ عليهم).

[٥] لأنه تحويل حركة إلى حركة أخرى مخالفة.

[٦] لأنه نطق للألف بصورة ما بين نطق الألف وبين نطق الياء.

[٧] لم يته سِيبَوَيه، بلْ تأملّ، وَوَصَل، وهو ما سيذكره المحاضر نفسه بعد قليل.

[٨] الكتاب: ٤/ ١٩٥.

[٩] الكتاب ٤/١٩٥.

[١٠] ما يريده الدرس الحديث ذكره سِيبَوَيه، ولكن المحاضر يحاسب سِيبَوَيه وكأنه باحث معاصر، من دون النظر إليه بأنه رائد يكتب على غير مثال سابق، قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام.

- **[الفتح]:**

وأمّا عكس الإمالة، يعني: المحافظة على اللفظ[١]، الأصلي للفتحة[٢]، والألف، فعبّر سِيبَوَيه عنها بـــ(الفَتْح) [٣]، يعني: الفَتْح الخالص، أو النصب [٤]، ويعزوه الى الحروف التي يشترك مؤخَّر اللسان في انتاجها[٥]، وإلى الفتحة والضمة[٦]، ولاشك أن له الحق في ذلك.

ويستغني عن الذكر أنَّ تأثيراً مميلاً، وتأثيراً ناصباً قد يتناقضان، إلاّ أَنّ وصْف الأحوال التي يحصل ذلك فيها، وتعيين

---

[١] أي المحافظة على نطق الفتحة أو الألف كما هما، من دون الاتجاه بنطقها نحو الكسرة أو نحو الياء.

[٢] القصيرة.

[٣] الكتاب: ٤/ ١٢٠.

[٤] الكتاب: ٤/ ١٢٢- ١٢٣- ١٢٥- ١٢٦-....

[٥] أي: إلى أصوات الاستعلاء السبعة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والغين، والقاف، والخاء، التي تمنع الإمالة في مثل: صاعد، وضامن، وطالب، وظالم، وغائب، وقائم، وخامل. ويرى سِيبَوَيه أن هذه الأصوات مُستعلية، والألف مستعلية أيضاً، فهي قريبة من بعضها، فالعمل في نطق الألف مع هذه المجموعة أخفّ عليهم. (الكتاب: ٤/ ١٢٨).

[٦] قال سِيبَوَيه: "إذا كان ما بعد الألف مضموماً أو مفتوحاً لم تكن فيه إمالة... وكذلك إذا كان الحرف الذي قبل الألف مفتوحاً أو مضموماً" الكتاب: ٤/ ١١٨، والسبب هو أَنّ الإمالة تقريب الفتحة والألف من الكسرة والياء، وحركتا الضمّ والفتح على غير ذلك.

الأسباب – التي ترجّح أحد التأثيرين على الآخر – أمرٌ مُتَعَرْقِلٌ[١]، للغاية، فتتعسر تَتِمتّه في مدّة هذه المحاضرة[٢].

***

- **[الإدغام]:**

ومن تقريب حرف إلى حرف من جهة اللفظ ما قد ذكرنا من انتقال (جهارة الدال) إلى (صاد أو شين) سابقة لها[٣]، ومنه أيضاً أنّ حرفاً رخواً قد يحوّل إلى شديد، إذا تلاه شديد، والعكس بالعكس، كما يقع فيما حكى سِيبَوَيه من الأمثلة مثل:

(خُدّاود)، أو (أَبْعذّلِكَ)

يعني خُذْ داود، و : أَبْعِدْ ذلِكَ[٤].

وأكثر ما يحصل من تقريب حرف الى حرف آخر من جهة اللفظ هو ما يدعوه سِيبَوَيه، وسائر البصريين (الإدِّغام) [٥] وهو:

---

[١] أي: يواجه عراقيل، وهي الصعاب.

[٢] يمكن أن نذكر مثالاً واحداً مما يريد أن يوضحّه المحاضر إذا جاء بعد الألف راء مكسورة وقبله أحد أصوات الاستعلاء المانعة للإمالة، فإن الراء المكسورة تكون هي الغالبة فتميل الألف فتقول: قارب، وطارد – بالإمالة – لتأثير الراء المكسورة على مانع الإمالة السابق للألف.

[٣] في مثل: أصدر، وأجدر .

[٤] الكتاب: ٤/ ٤٦٤.

[٥] الإدغام –بالتشديد– من ألفاظ البصريين، وبالتخفيف (الإدغام) من ألفاظ الكوفيون (الخصائص ٢/ ١٤٠– ومعاني القرآن، للفرّاء ١/ ٤١١).

أنك توالي بين حرف ساكن ومتحرّك[١]، كلاهما من موضع واحد[٢]، دون أن تغيّر ترتيب آلات النطق[٣].

وقد رأينا بما مرَّ علينا من الأمثلة أنّ إنتاج حرفين متواليين في موضع واحد، لا يمكن في كثير من الأحوال إلاّ بعد تسوية لفظيهما[٤]، ومع ذلك ليس تقريب اللفظ نفس الإدغام، ولا من ذاته، بل عَرَضٌ له فقط، أو وسيلة ممهدة له[٥]، وممّا يدلّ على أن هذا التعريف ينتهي إلى مقصد سِيبَوَيه أنه في مثل كلمة (وَطْدا)[٦]، يُستحسَن البيان [٧]، وهو عكس الإدغام، يعني: وَطْ – دا.

---

[١] حتى يتم التداني التام أو التلاصق بين الحرفين، أي: من غير أن تفصل بينهما حركة؛ لأنها – إن وجدت – تحول بين الحرفين، لكون محلّها بعد الحرف.

[٢] أو من موضعين متقاربين.

[٣] وهذا هو قصد سِيبَوَيه من قوله: "هذا باب الإدغام في الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعا واحدا لا يزول". الكتاب: ٤/ ٤٣٧. أي: إنَّ آلة النطق (اللسان) ثابتة من دون تغيير حادث زمن نطق الصوتين.

[٤] نظير: انمحى يكون بعد الإدغام بعد التسوية: امَّحَى..

[٥] أي: إنَّ تحويل النون إلى ميم هي مرحلة ممهّدة لإدغام الميم المحولة من النون في الميم الأصلية.

[٦] وطَداً: مصدر وَطَد الشيء: ثبّته، وقوّاه، ففي هذا اللفظ تجاور فيه صوتان من مخرج واحد، ولم يدغموا الطاء في الدال كراهة إجحاف الإدغام بذهاب إطباق الطاء.

[٧] لأنه إذا أدغم أحد الصوتين في الآخر نحو: وطّا، أو ودّا، حدث لبس في الصيغ والمعاني مع كلمات أخرىَ.

ومَن أراد أن يُدغم فعليه أن يحافظ على إطباق الطاء[١]، وبما أن الطاء يفترق عن الدال – حسب تعريف سِيبَوَيه نفسه– [٢]، بمجرد الإطباق، يتعسّر علينا أنْ نُفَسّر إدغام الطاء في الدال من جهة اللفظ، إلاّ بنطق دال مشددة، هي مطبقة في نِصفها الأوَّل ويؤيّد هذا التفسير أن سِيبَوَيه يفتح درس الإدغام بأمثلة يلتقي فيها الحرف بمثله كما هي الحال في (قَدّ) بدلاً من (قَدَدَ) [٣]، أو في (يدّاود) بدلاً من (يدُ داود) [٤]، ولا محل هنا لتقريب الحرفين المتواليين من بعضهما؛ لأنهما متماثلان من بادئ الأمر [٥].

أما بعدُ: فليس من قصدنا، ولا من مقدرتنا أن نُحلَّل هنا كلّ ما يسرده سِيبَوَيه لمعاملة الإدغام[٦]، بل نكتفي بذكر ملاحظتين عامتين وُفّق سِيبَوَيه إليهما:

**أولهما:** أنه أقرب ما يكون حرفان متواليان من بعضهما نظرا إلى اللفظ أسهلُ ما يكون إدغام أحدهما في الآخر[٧].

---

[١] لأنَّ الإدغام لا يبخس الأصوات صفاتها.

[٢] الكتاب: ٤/ ٤٣٦.

[٣] تجاور المثلين في كلمة واحدة.

[٤] تجاور المثلين في كلمتين.

[٥] أي: يحدث الإدغام مباشرة.

[٦] وهي كثيرة جداً، لأنه تناول الإدغام بإسهاب.

[٧] من أبرز شروط الإدغام هو التداني التام من دون وجود فاصل من حرف أو حركة.

**والملاحظة الثانية:** أن أصل الإدغام في حروف الفم، واللسان[١]، لِكَثْرة وجودها[٢].

- أما الملاحظة الأولى، فلا شكّ في صحّتها.
- وأما الثانية: فتحتاج إلى قليل من التصحيح[٣]، [فـَ] يصحّ بلا نزاع أنّ حروف الفم واللسان أكثرُ عدداً من حروف الشفتين والحلق، ويصحَّ – أيضاً – أنها تشترك في الإدغام أكثر من سائر الحروف، إلاّ أننا لسنا بمقتنعين أن الواقع الثاني نتيجة الأوّل، فإنه ليس من عادة آلات النطق أنْ تهتمّ بالاحصائيات! بل من عادتها أنها أكثر ما تنطلق، [أي] أكثر ما تتحرّك وتتقلّب[٤]، ومن المعلوم أنّه ليس لآلة من آلات النطق استطاعة على التحرك والتقلب تعادل انطلاق اللسان، والجزء المؤخّر من الحَنَك، فإنّ من وضع طرف لسانه على موضع الدال – مثلاً – ليس عليه إلاّ أن يفتح لنفسه مخرجاً من جانبي اللسان،

---

[١] الكتاب: ٤/ ٤٦٢.

[٢] عبارة (لكثرة وجودها) لم يقلها سِيبَوَيه بل قال: "لأَنَّ أصل الإدغام لحروف اللسان والفم وأكثر حروف اللسان من طرف اللسان، وما يخالط طرف اللسان، وهي أكثر من حروف الثنايا"، فمعنى قوله: إنَّ أصل الإدغام لحروف اللسان والفم، وهذه الحروف كثيرة، ولم يقُل ما ذكره المحاضر.

[٣] نعم، تحتاج إلى التصحيح إنْ ثبت ما اعتمد عليه المحاضر في الردّ، ولم يثبت.

[٤] والظاهر أنّ هذا هو قصد سِيبَوَيه أيضاً.

حتى ينتج لاماً. وإذا رفَعَ طرف اللسان يصلُ إلى راء، وإذا أرخَى الجزء المؤخّر من الحنك يخرج نونا [١].... الخ.

فمن هنا يصح ما قاله سِيبَوَيه عن حروف الفم، واللسان، أنّ أصل الإدغام فيها، إلاّ أن مميّزها ليس أنها تميل ميلاً خصوصيًّا إلى قبول إدغام حروف أُخر فيها[٢]، بلْ إنّها نفسها تُدغَم في حروف أُخر بغاية السهولة، كما يُفهم ممّا قلناه عن شدّة تحرّكها وتقلّبها.

وليس من الغريب أنّ سِيبَوَيه اشتبه[٣]، في هذه المسألة، فإنّه في الأمثلة التي حكاها للإدغام، كلا الحرفين الملتقيين من حروف الفم واللسان.

***

---

[١] وهذا صحيح لتقارب المخارج، ويحضرني هنا تمثيل سابق لابن جنّي عند بيان كيفية إحداث الصوت البشري إذ قال: "ألا ترى أنك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ أيّ المقاطع شِئت، فتجد له جرساً ما، فإنْ انتقلت منه، راجعاً منه، أو متجاوزاً له، ثمّ قطعت أحسُسْت عند ذلك صدىً غير الصدى الأوّل، وذلك نحو الكاف، فإنك إذا قطعت بها سمعت هنا صدى ما، فإنْ رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإنْ جُزت إلى الجيم سمعت غير ذينك الأوّلين". (سر صناعة الإعراب ١/ ٦).

[٢] لا يظهر من كلام سِيبَوَيه هذا الفهم.

[٣] نعم، اشتبه، لو صحّ الافتراض الذي اعتمده المحاضر، ولا أظنّه صحيحاً.

- **[فضل سِيبَوَيه]**

**وكلّ ذلك ما يُقلّل الفضل الذي لسيبويه، بأنّه اكتشفَ هنا قانوناً لم يُوفّق علم الأصوات العصري إلى معرفته إلاّ منذ خمسين سنة على الأكثر[١].**

***

- **[تبعيد الحروف عن بعضها (المخالفة)]:**

وإذا كُنّا لم نذكر لغاية الآن إلاّ تقريب الأصوات من بعضها، وهو ما يسمّيه أصحاب عِلْم الأصوات عند الغربيين (assimilation)[٢]، فليس معناه أنّ عكس ذلك – أعني تبعيد الحروف عن بعضها – لا يوجد في العربيّة [٣]، إلاّ أنّ سِيبَوَيه –

---

[١] أي لم يُكتشف إلاّ في حدود سنة ١٨٨٠م.

[٢] أي: المماثلة، وهي عند علماء العربيّة: المضارعة والتقريب.

[٣] نعم، توجد في اللغة العربيّة، وهي باب واسع أوّل مَن التفتَ اليها الخليل بن أحمد الفراهيدي في كلمة (ماما) التي أصبحت (مهما) وقد ذكر الخليل أن ابدال الألف وقع (ليختلف) اللفظ، ومن هنا سميّت بـــ(المخالفة)، وأفرد لها سِيبَوَيه باباً بعنوان (ما شذّ فأبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف) وذكر فيها تسرّيت، وتظنيت، وتقصيّت، وأمليت، والأصل فيها تسرّرت، وتظنّنت، وتقصّصت، وأمللت، بالإضافة إلى ما ذكره المحاضر من معالجة تضعيف الهمز وغيره، وتناول المخالفة فيما بعد أغلب علماء العربيّة (معجم العين: مه ٣/ ٣٥٨، الكتاب: ٤/ ٤٢٤، وينظر باب المخالفة من كتابنا: دراسات لغوية (عمان، ٢٠٠٣).

على ما أرى – لم يلاحظ لتبعيد الحروف إلاّ موقعاً واحداً[١]، وهو تخفيف همزة عن التقاء همزتين كما ورد في بيت حكاه سِيبَوَيه:

**كلُّ غَرَّاءَ إذا مـــا بـــرزَتْ تُرْهَبُ العينُ عليها والحَسَدْ** [٢]

وهناك موقع ثانٍ، لاحظ فيه سِيبَوَيه شيئاً من التبعيد، إلاّ أنّ ذلك تبعيد لا يختصّ بحرفين، بل بحركتين، وهو أنّ الضمير المتصل للغائب، تقصرُ حركته بعد حركة طويلة، وتمُدّ – أو بالحَرَى تبقَى ممدودة – بعد حركة قصيرة مثل: أبوهُ حذاء أمُّهو[٣].

***

[١] هذا غير دقيق، بل لاحظ مواقع أخرى (ينظر: الهامش السابق).

[٢] هذا بيت مجهول القائل استشهد به سِيبَوَيه على تخفيف إحدى الهمزتين في كلّ من (غرّاء – إذا) لثقل اجتماعهما، ورواية سِيبَوَيه على تخفيف الهمزة الثانية في (إذا)، وجعلها همزة بين بين؛ لأنها مكسورة بعد فَتْح، مع أن تحقيقها جائز لكونهما منفصلتين. وقد وصف الشاعر امرأة حسناء إذا بدت للناظرين خيف عليها من العين (الكتاب: ٣/ ٥٤٩، وشرح المفصل، لابن يعيش ٩/ ١١٨).

[٣] قال (فإذا كان قبل الهاء حرف لين فإنّ حذف الياء والواو في الوَصْل أحسن... فإنْ لمْ يكنْ قبل هاء التذكير حرف لين أثبتوا الواو والياء في الوَصْل)، ينظر: الكتاب: ٤/ ١٨٩– ١٩٩.

- **[الوَقْف]** [1]

لم يتأخر علينا بعد ذلك إلاّ دراسة كتلة واحدة لاحظها سِيبَوَيه من الحوادث الصوتية، وهي حوادث الوقْف، إلاّ أنّ دراستها تصعُب علينا، ولاسيّما تتعسّر المقارنة بين تفسير سِيبَوَيه لهذه الحوادث، وبين تفسيرنا؛ لأَنَّ سِيبَوَيه لم يدرك شيئين لهما نصيب خصوصي في إحداث هذه الحوادث.

**أحدهما:** الضّرب، أو الضّغط[2]، يعني: إخراج جزء من أجزاء الكلمة أو الجملة، بتقوية النفس، وهو ما يسّمى: ( accent dintensite) أو (stress) في اللغات الأوروبية.

---

[1] الوقف: قطع النطق عند آخر كلمة وهي ظاهرة نطقية مقيّدة في اللغة العربيّة بأسس عامة، وقواعد مبنية على ترابط معنى الجمل، وتمام المعنى وهيئات خاصة قد تلزمها تغيرات على وفق حركة آخر الموقوف عليه.

[2] يريد ما يُعرف بـــ(النَّبر) أي: الضغط – حال النطق – على صوت أو على مقطع من مقاطع الكلمة، ينتج عنه وضوح نسبي لذلك الصوت، أو المقطع، فكلمة (كتب) مؤلّفة من ثلاثة مقاطع (كَ + تَ + بَ) فعند التدقيق عند سماع جرس الكلمة كلها نجد أن الضغط يقع على المقطع الأوَّل أكثر من المقطعين الآخرين. ولم يتعرّض علماؤنا إلى دراسة هذا اللون من المعطيات الصوتية ما عدا إشارات سريعة إلى التركيز على نطق بعض الحركات وإطالتها، وسبب هذا أن النبر لم يكن له دور كبير في دلالة الكلمات وتحديد صيغها، كما هي الحال في جملة من لغات العالم، وقد نلحظ هذا النبر على مستوى اللهجات العربيّة. (الأصوات اللغوية: ١٦٩، والمدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب: ١٠٣).

**والثاني:** هو (المقطع) [١]، إذا جاز أن نستعمل هذه الكلمة بمعنى (Syllable)، أما الأوَّل: فقد ذهب – بعض من اعتبره غاية الاعتبار من العلماء – إلى أن سِيبَوَيه عبّر عنه بعبارة (النّبرة)، إلاّ أنه لا يكاد يستعمل هذا الاصطلاح إلاّ بخصوص الهمزة، يقول – مثلاً – في (باب الهمز) [٢]: إنها نبرةٌ من الصدر[٣]، فلو صحّ أنه عَنّى بها مثل ما نسمّيه ( accent d intensite) أو (stress). يصحّ – أيضاً – أنه لم ينتفع بمعرفته حقّ الانتفاع، فإنّه لو فعل ذلك، لوَصَلَ في تأصيل الفرق بين لفظين يحكيهما لكلمة واحدة، مثل:

---

[١] ويُراد به: مجموعة من الأصوات تشتمل على حركة مع صوت ساكن أو أكثر، وتتشكّل نتيجة دفعة هوائية من الرئتين منفصلة عن غيرها، ولهذه المجموعة قِمّة إسماع تكون حركة غالباً، وعادة تكون بين مجموعة وأخرى وَقْفةَ غير محسوسة أثناء الكلام المستمر، فكلمة (عن) مؤلّفة من مقطع واحد: عَنْ، وكلمة (وَصَل) مؤلّفة من ثلاثة مقاطع: وَ + صَ + لَ. و(راسَلْتُ) مؤلّفه من ثلاثة مقاطع: را + سَلْ + تُ. وإذا كانت دراسة المقطع دراسة حديثة فإننا يمكن أن نتلمسها في الدراسة العربيّة العروضية لتأسيسها على الساكن والمتحرك. ومن فوائد دراسة المقطع أيضاً معرفة نظام كلّ لغة في اختيار مقاطع كلماتها، وبالتالي تحديد الدخيل فيها. ينظر: (أسس علم اللغة: ٩٦ وعلم الأصوات، مالمبرج ١٥٤، الأصوات د. أنيس: ١٥٩).

[٢] الكتاب: ٣/ ٥٤١.

[٣] الكتاب: ٣/ ٥٤٨.

مأَمَنِك (بكسرة مختلسة للنون) ومأمنيك (بكسرة مُشْبَعة) [١]، إلى غير ذلك ما وَصَل إليه، ويصحّ ذلك نفسه عن المقطع – وهو عندنا كلّ جزء من أجزاء الكلمة – يجوز الوَقْف عليه بدون تشويه الكلمة، وذلك مثل قَطْعِك كلمة (كاتبْتُ) إلى ثلاثة مقاطع:

- أولها: مُطْلَق طويل[٢]، وهو (كا).
- والثاني: مقيّد قصير[٣]، وهو (تَبْ).
- والثالث: مُطْلق قصير[٤]، وهو (تُ) [٥].

وفيها يحكيه سِيبَوَيه من حوادث الوقف شيء يحتاج تفسيره غاية الاحتياج إلى معرفة ماهيّة المقطع، والعمل بها، وهو نقْلُ

---

[١] الكتاب: ٤/ ٢٠٢، ويريد المحاضر هنا أنه لم يرصد الفَرق بين نُطق النون المكسورة بالنَّبر أو بغيره.

[٢] وهو المؤلف من صحيح + حركة طويلة، ويُرمْز له بـــ(ص ح ح).

[٣] وهو المؤلف من صحيح + حركة قصيرة + صحيح ساكن، ويُرمز له بـــ(ص ح ص).

[٤] وهو المؤلف من صحيح + حركة قصيرة، ويُرْمز له بـــ(ص ح).

[٥] وهناك ثلاثة مقاطع أخرى في العربيّة، هي:

أ- صحيح + حركة طويلة + صحيح ساكن، ويُرمْز له بـــ(ص ح ح ص) نظير المقطع الأخير من كلمة (نستعين).

ب- صحيح + حركة قصيرة + صحيحان، ويُرمْز له بـــ(ص ح ص ص) نظير المقطع الأخير من كلمة (المُسْتَقَرّ)، حال الوقف.

ت- صحيح + حركة طويلة + صحيحان، ويُرمْز له بـــ(ص ح ح ص ص) نظير (ضالَ) حال الوقف.

حركة الحرف الأخير إلى الحرف الذي قبله، كقولك: بكُرْ، بدلاً من (بَكْرُ)[١]، إلاّ أنّ سِيبَوَيه لم يدرك معنى المقطع، فلم يصل ابداً لهذا الحادث إلى تفسير مُقْنِع[٢].

***

- **[سِيبَوَيه وعلم الأصوات]**

**ومع ما فيه من بواعث الأسف، فيستحق ما قد وصل إليه من غايات علم الأصوات، أن نعتبره – ما أجمع على تسميته كلّ مَن درسَهُ مِنْ علماء الشرق والغرب – مفخراً[٣]، من أعظم مفاخر العرب**

***

---

[١] الكتاب: ٤/ ١٧٣، يرى سِيبَوَيه أنّ ضمّة الراء في (بكُر) من قولهم: هذا بكْرُ، نُقِلت في حال الوقف – إلى الكاف، فقالوا: هذا بكُرْ، كراهية التقاء الساكنين.

[٢] الشغل الشاغل لسِيبَوَيه هو بيان شكل حركة آخر الموقوف عليه من خلال نظرة وصفية لما يسمع مع محاولة تعليل ذلك.

[٣] المَفْخَر: ما يُفْتَخرُ به.

## مصادر المقدمة والتعليق


- أخبار النحويين، للسيرافي، تحقيق: الزيني وخفاجي (القاهرة، ١٩٥٥).
- أسباب حدوث الحروف، لابن سينا، تحقيق: محمد الطيان ويحيى علم (دمشق، ١٩٨٣).
- أسس علم اللغة، ماريوباي، ترجمة: د. أحمد مختار (طرابلس، ١٩٧٣).
- الأصوات اللغوية، د. ابراهيم أنيس (القاهرة، ١٩٨٧).
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، تحقيق: محمد ابو الفضل (القاهرة، ١٩٨٦).
- التاريخ الكبير، للبخاري (حيدر آباد الدكن، ١٣٦٠هـ).
- التشكيل الصوتي في اللغة العربيّة، د. سلمان العاني، ترجمة: د. ياسر الملاح (جدّة، ١٩٨٣).
- التطور النحوي، برجشتراسر، إخراج: د. رمضان عبد التواب (القاهرة، ١٩٩٤).
- تكنولوجيا اللغة والتراث العربي، د. عبد الرحمن الحاج صالح، مطبوع على الآلة الكاتبة/ مكتبتي الخاصة.
- الخصائص، لابن جني، تحقيق: محمد النجار (القاهرة، ١٩٥٢).
- دراسات لغوية في تراثنا القديم، د. صبيح التميمي (عمان، ٢٠٠٣).

- دروس في علم أصوات العربيّة، جان كانتينو، تعريب صالح القرمادي (تونس، ١٩٦٦).
- سرّ صناعة الاعراب، لابن جنّي، تحقيق: د. السقّا وآخرين (القاهرة، ١٩٥٤).
- شرح كتاب سِيبَوَيه، للسيرافي، مخطوط بدار الكتب المصرية (٥٢٨ نحو، تيمور).
- شرح المفصّل، لابن يعيش (نشر: عالم الكتب، بيروت).
- شواهد الشعر في كتاب سِيبَوَيه، د. خالد جمعة (القاهرة، ١٩٨٩).
- طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل (القاهرة، ١٩٨٤).
- علم الأصوات، بريتل مالمبرج، تعريب، د. عبد الصبور شاهين (القاهرة، ١٩٨٤).
- علم الأصوات، عند ابن سينا، د. محمد الضالع (الاسكندرية دار المعرفة).
- علم الصوتيات، د. عبد الله ربيع، و د. عبد العزيز علاّم (القاهرة، ١٩٧٧).
- علم اللغة، د. محمود السعران (القاهرة، ١٩٩٢).
- علم اللغة العام – الأصوات – كمال بشر (القاهرة، ١٩٨٦).
- العين، للخليل الفراهيدي، تحقيق: د. المخزومي و د. السامرائي (بغداد، ١٩٨٠).

- في قواعد الساميّات، د. رمضان عبد التواب (القاهرة، ١٩٩٣).
- الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، (بيروت، دار الجيل).
- الكشف عن وجوه القراءات، مكي القيسي، تحقيق: د. محي الدين رمضان (دمشق، ١٩٧٤).
- مبادئ علم الأصوات العام، ديفيد ابروكرومي، ترجمة: د.محمد فتيح (القاهرة، ١٩٨٨).
- مجالس العلماء، للزجاجي، تحقيق: عبد السلام هارون، الكويت، ١٩٦٢.
- مجلة رسالة الإسلام باللغة الالمانية، العدد ٣١، ١٩٥٤.
- المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب (القاهرة، ١٩٨٢).
- مراتب النحويين لعبد الواحد أبي الطيب اللغوي، تحقيق: محمد ابو الفضل (بيروت، ٢٠٠٢).
- معاني القُرآنِ، للفراء، تحقيق: نجاتي وآخرين (القاهرة، ١٩٧٢).
- معجم الأدباء، لياقوت (بيروت، دار احياء التراث).
- المقتضب، للمبرّد، تحقيق: د. عضيمة (بيروت، عالم الكتب).
- مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسّان (القاهرة، ١٩٥٥).